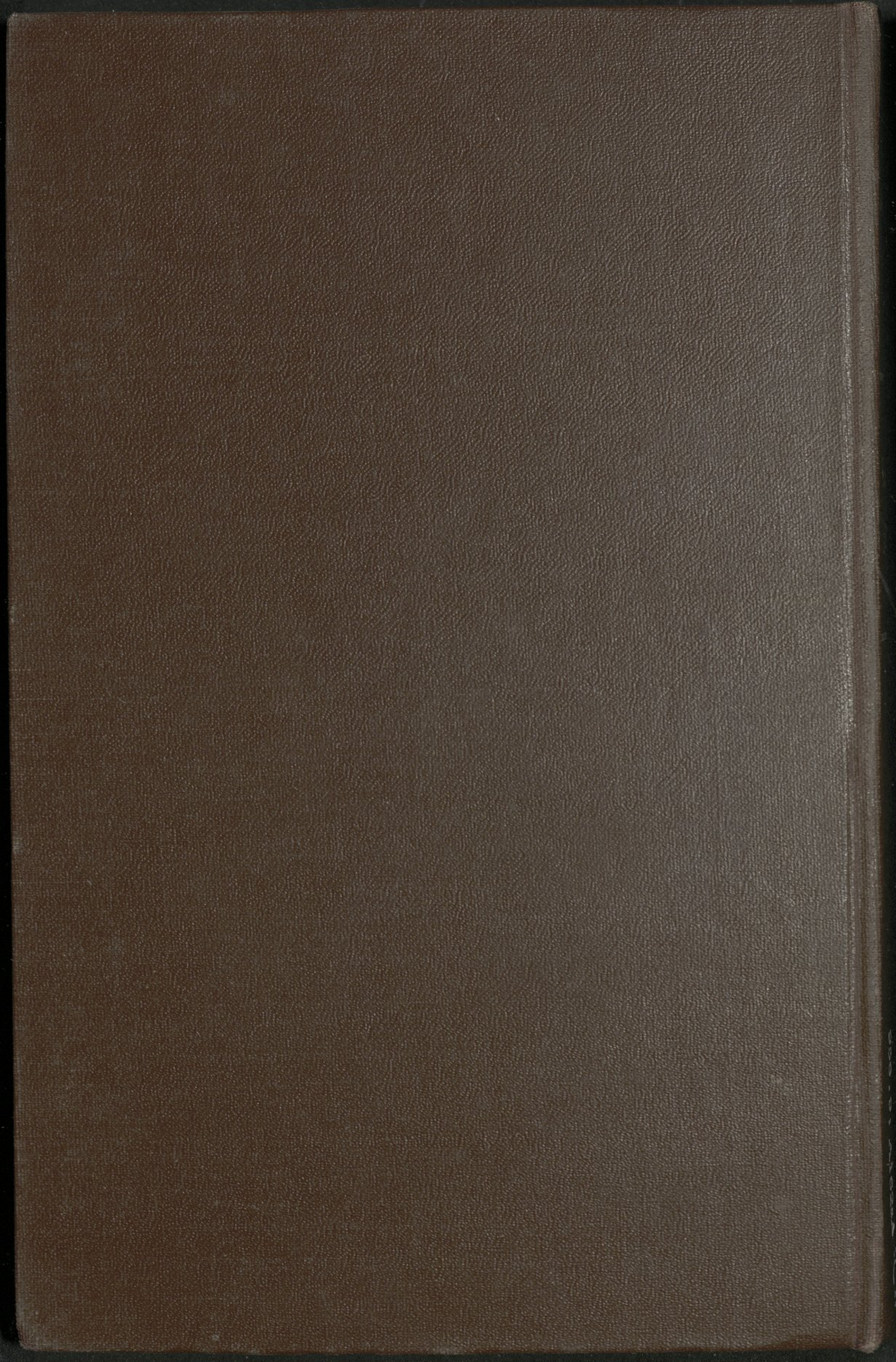
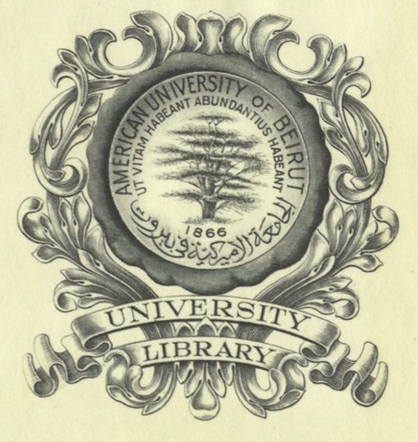
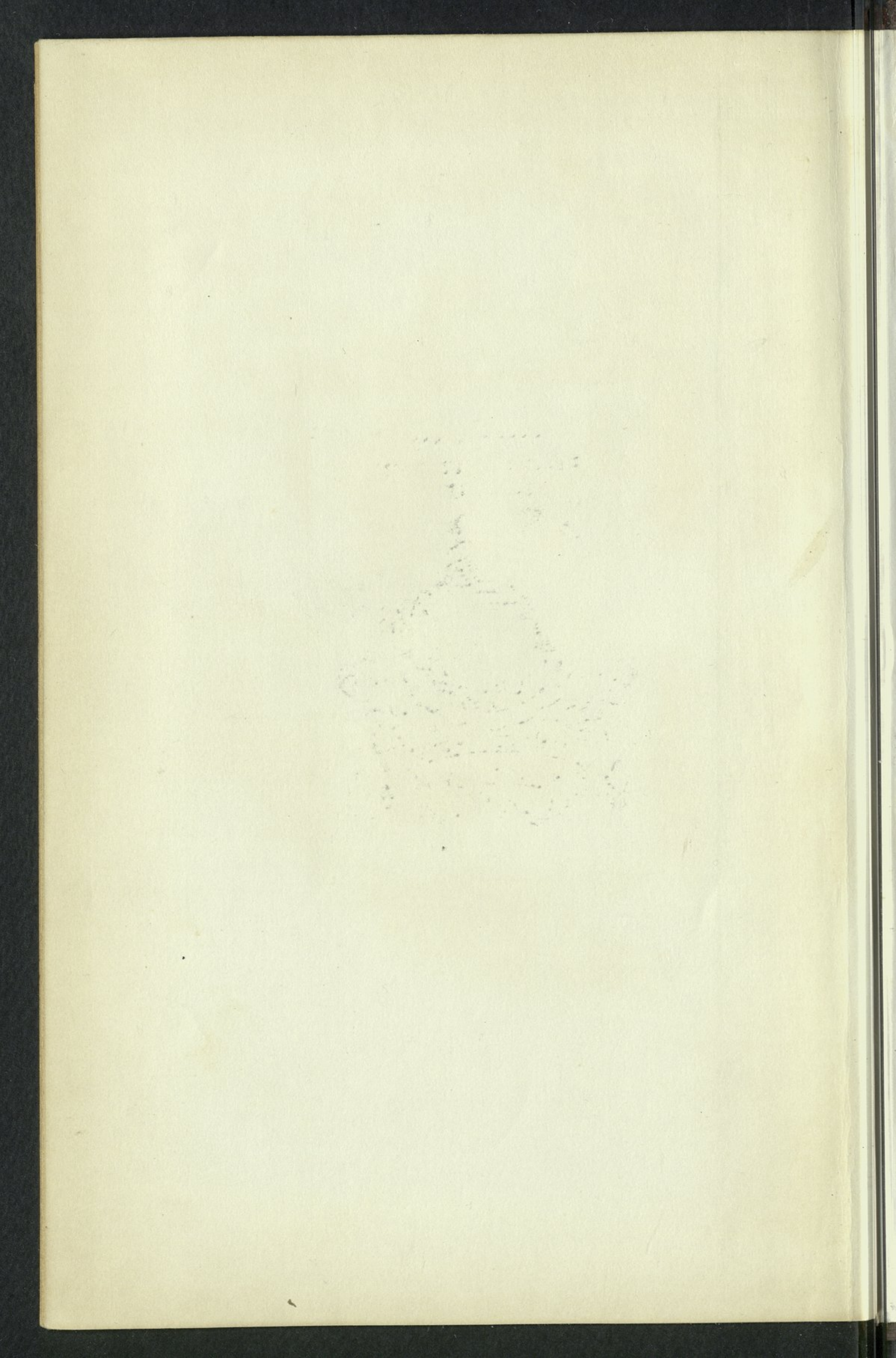
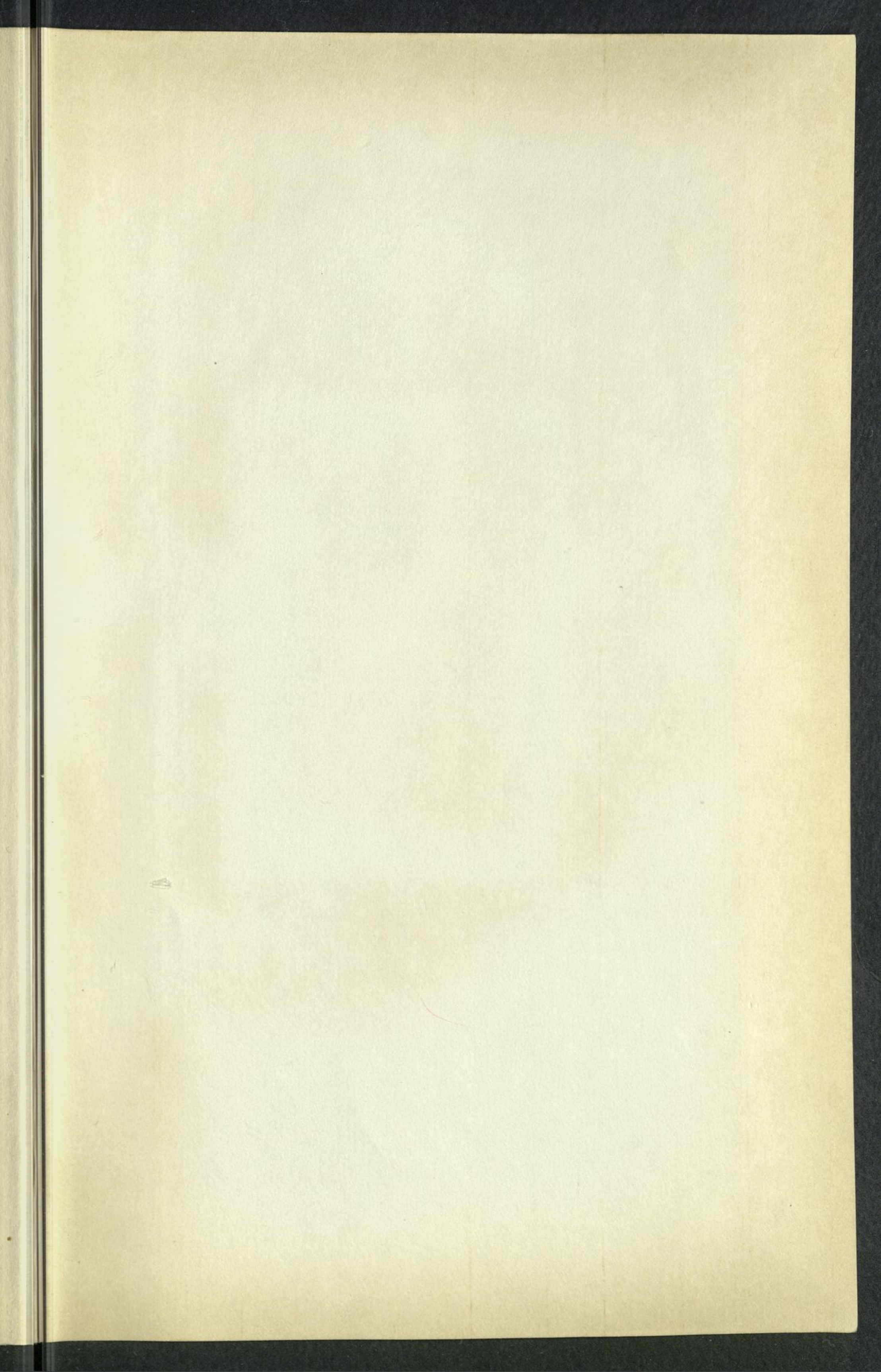
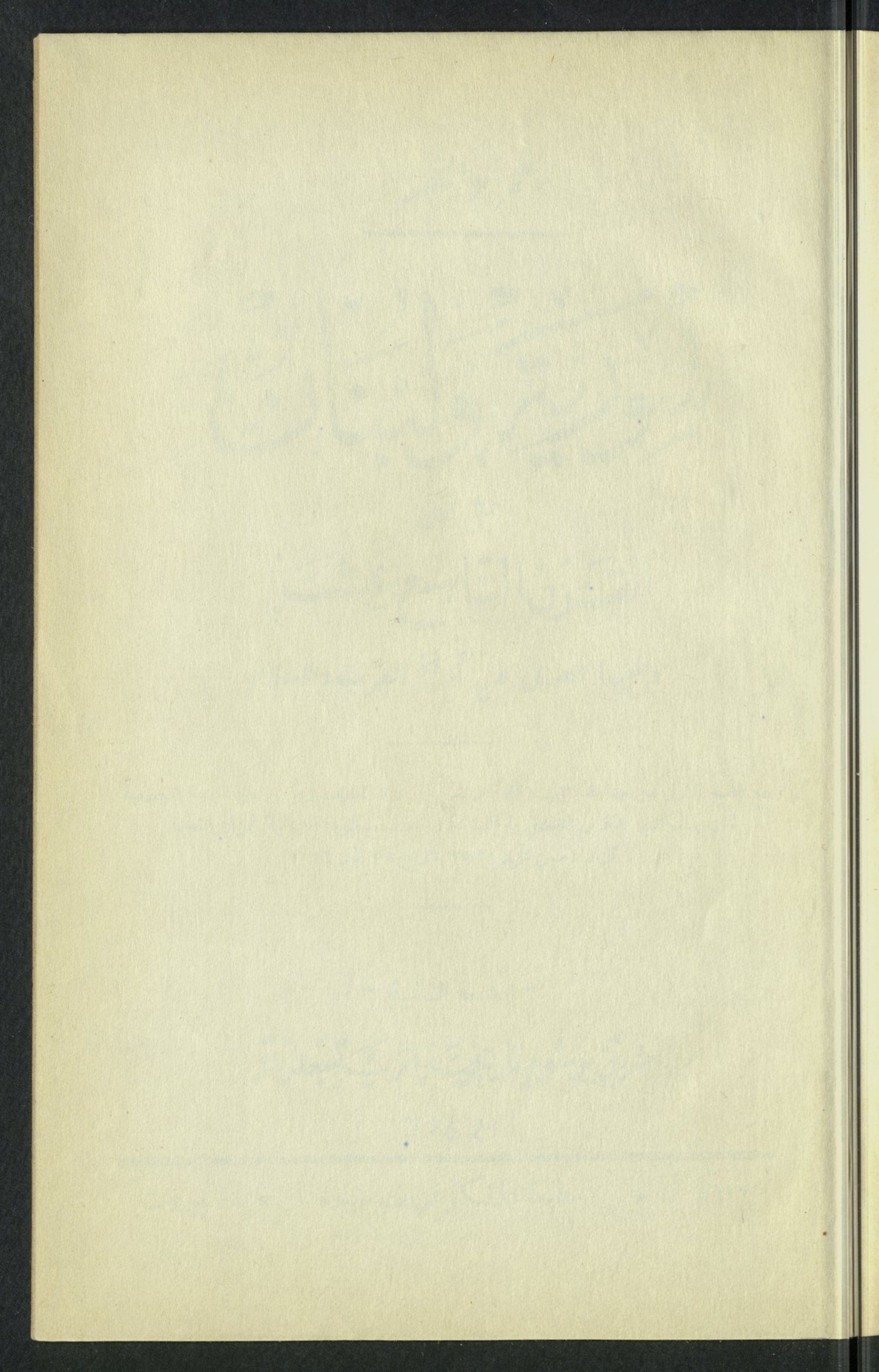


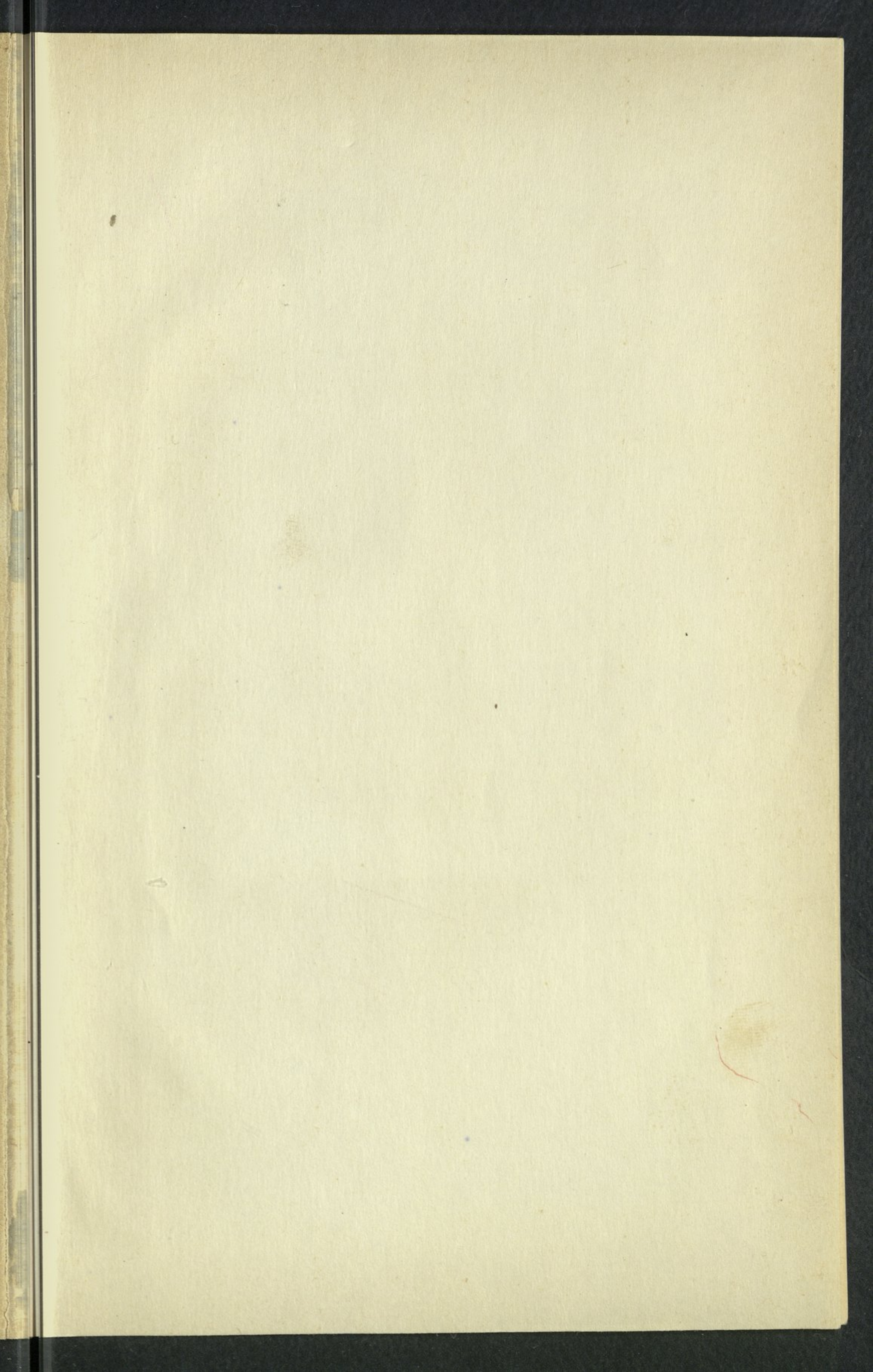
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT











956.9
A162sA
c.1

عمر ابو النصر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

سورية ولبنان

حتى اول

القرن التاسع عشر

ويليها فصول عن تاريخ العرب والاسلام

وضع القسم الاول من هذا الكتاب وفاقاً لبرنامج وزارة المعارف وعرض على اللجنة المخصصة لدرس الكتب لمدارس الجمهورية اللبنانية وايدت الحكومة اللبنانية قرار اللجنة بقرار رسمي نمرو ٣٨١١ بتاريخ ٢٥ ايار ١٩٢٦

— الطبعة الثانية —

مزين برسوم تاريخية اثرية جديدة

77621

١٩٢٧ * مطبعة وزنكوغراف طباره * بيروت

Cat. Sept. 1951

الاهداء

اقدم كتابي الاول في عالم التأليف
الى «والدي» الكريمين اللذين ربياني صغيراً،
وسهرا علي يافعاً وفتى، هدية من صغير الى
كبار، واعترافاً مني بفضل عظيم طوقاني به
ومابرحا يطوقاني به حتى اليوم.

عمر ابو النصر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مقدمة الطبعة الاولى

ارادت وزارة المعارف ان تكون صلة بيني وبين المتأدبين من شباب هذا البلدبأن تنشر بينهم هذه الدروس التاريخية ، وان تحملهم على درسها وتفهمها ، فمن الحق ان ابدأ كتابي الاول بتقديم اجمل الشكر لسماحة الاستاذ الجليل محمد الجسر ناظر المعارف السابق ورئيس مجلس الشيوخ الحالي لما تفضل به من ايجاد هذه الصلة ، ولما وُفِّق اليه في اخراج هذا الدرس الممتع الجديد من تاريخ هذا القطر الطيب

تقدمنا الى الاستاذ الجليل بوضع هذا الكتاب وفي نفسنا ما في نفسه من جلال العمل فحبذ الفكرة ، فامضينا امره وصرفنا اشهراً في تأليف هذه السلسلة ، ونحن حريصون جد الحرص على ان يجد فيها العامل والتاجر والاديب والطالب غناءهم ، يقتصرون عليها دون المطولات ويقرأون هذا الكتاب عربياً صرفاً خالصاً في انشائه وتراكيبه من شوائب العجمة والتعقيد فهو في سهولة عبارته وطريف اسلوبه وقرب تناوله ، عمل صغير ، لفتيان في روعة الشباب

ولقد اجاهد نفسي جهاداً شديداً لأمنعها من تبيان ما لهذا العمل من خطر ، وما له من فضل ونفع ، ذلك ان هذه السلسلة نفسها ستظهر للناس هذا النفع وهذا الخطر ، وحسبنا بياناً اننا سندرس في هذه الصفحات تاريخ العنصر العربي السوري وما اعترضه من ضروب التطور والوان الاستحالة والرقي منذ اول عهده بالحضارة حتى انتهى الى حاله الحاضر

هذا الكتاب اول السلسلة وهو عملٌ بذلنا فيه غاية ما استطعناه من الجهد سواء قلَّ فيه فضلنا او كثر . فلقد اخذنا البحث باطراف موضوعه وتكلمنا فيه في كل موضع على وجهه الانسب فتصرفنا في مختلف الآراء ومتفرق المباحث تصرفاً ارشدنا اليه العقل نحكّمه في استخراج الحقيقة الشاردة لترجعها الى اصلها عاملين على الباسها لباساً اقل ما نقدر ان نقول فيه انه عربي مبينٌ . وليس هذا العمل بالضئيل او بالامر القليل ذلك انه اذا حالت الحوائل بين الكاتب والعمل فمنعته من ان يعمل عملاً اصيلاً وان يقول قولاً جديداً فلا اقل من الكلام الحسن يجري به يراعه على قرطاسه بلغة فصحى وبيانٍ جليٍّ .

ليس التاريخ قصة قديمة ، وخبراً سالفاً فحسب ، بل عظة رائعة ، وصورة حقة لما كانت عليه الحياة عهد الآباء والاجداد ، في العلم والسياسة والصناعة والزراعة والادب والاجتماع .

ولقد ذهب المؤرخون مذاهب في تعريفه لا اردد ماقالوه ، ولا انقد ماذهبوا اليه ، فقد اعود لهذا في كتاب قادم ، وانما اتقدم برأيي وهو اختبار نفسي ، فان لم يكن الحقيقة كلها او أجلّها فهو بعضها ، التاريخ وصية السلف الى الخلف ، ان احسنوا فدعوة لاقتفاء الاثر حتى الكمال ، وان اساءوا فعظة ودعوة الى الاصلاح ، والعمل النافع .

حسب الشباب هذا اليوم ، لكل حادث حديث ، وحديث الكتاب القادم ازهى لوناً وافزر مادة ، واوسع بحثاً وابعد غوراً واوضح مذهباً وبياناً .

بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٢٦ عمر ابو النصر

مقدمة الطبعة الثانية

الضجة حول كتاب سوريا ولبنان

تحدث اليّ صديق من اخواني على اثر الضجة التي قامت حول كتابي فقال « لك اسوة بالاستاذ الدكتور طه حسين بمصر فلقد عرضت بعض الصحف بكتابه وتأول بعض الكتاب مؤلفه فادعوا انه منسوخ . وقالوا انه قد اخطأ وضل . وليس في هذه الضجة ما يضير طه حسين ولا كتابه . فسيخرج طه حسين منها اكثر شهرة واعز مكاناً »

قلت « انهم يأخذون على الاستاذ طه حسين تحامله على بعض المعتقدات الدينية وانكاره بعض النصوص القرآنية وليس في كتابنا شيء من هذا ، اللهم الا ان يكون ما ذهبنا اليه من ولادة المسيح في ضواحي الناصرة وما اعتمدناه في ترجمة (جان دارك) من انها رأت في مايري النائم ملاكاً يأمرها بانقاذ فرنسا فكان من ذلك الضجة التي اثارها اليسوعيون وتابعهم فيها بعضهم وحجتنا في هذين الحادثين كتب تاريخية افرنسية وانكليزية تعد من اعظم مصادر التاريخ في العصر الحاضر ثقة وشهرة

ولقد اكون من اسعد الناس بمناقشة الخصم الشريف يتحدث اليّ بالنقد الشريف. ومن اشدهم نكيراً على النذل يحرف الكلم عن مواضعه ويبتدع الشبهات في تحريف النصوص التاريخية

اجل كنت اكون من اسعد الناس لو عرفت ان نقادي لهم المام بموضوع الكتاب. اذاً لاريتهم ان الكتاب لا يحتوي على ما يعدونه عليّ خطأ وما يتعملونه من نقد

انتقد الكتاب اربعة نفر هم الاب لويس شيخو. والاديب بطرس البستاني. ويسوعي مجهول الهوية والمقام فروخ . وانتقد الكتاب الثلاثة الاول لاغراض في النفس فقد يشق على اليسوعيين ان يقوم احد المسلمين بعمل ناجح ويسوءهم خصوصاً ان يقوم هذا المسلم بوضع الكتب المدرسية. يزاحم بها كتبهم وهي عندهم التجارة الرابحة ويشق على الاديب البستاني ان يكون لنا في النظم والنثر غير مذهبه ، واما رابعهم فلا

ندري ما حمله على نقد الكتاب خصوصاً وانه حرّف وبدل وحور واخطأ في الترجمة ·
ولعل اعجب ما في هذا الحادث من عجب وسخف امتداد يد القدر الى مثل هذا الفرخ ترفعه من حيث كان لا يعرف أتشرق الشمس في السماء ام في الارض · ويعبر البحر بالطول ام بالعرض الى الكتابة في الصحف والتحرش بالكتب

هذه ضجة لا نريد ان نعيدها جزعاً، وانما نرغب في هذا المقام ان نتحدث الى الاب شيخو بانه قد اخطأ في نقده وضل في مقاله· وان ماسعى اليه من تشويه الكتاب والنكاية بمؤلفه ، امر يقصر عن دركه فليس يجهل الناس ان الاب شيخو اوسع الكتاب ذمة وارحبهم صدراً لكل رأي سخيف · في التاريخ والادب وهم يشكون في نقده ويتأولون اخلاصه وقد ضربوا المثل بكتابه شعراء النصرانية في الجاهلية بانها مجموعة خدع واضاليل ونحن نبشره ان الاجيال القادمة ستقرأ مؤلفاته كما تقرأها اليوم الحاضرة للتفكهة والتسلية كامثالها من قصص الزير وعنتر وابو زيد الهلالي

نقول هذا ، وننظر في نقد الاب شيخو لكتابنا في مجلة المشرق فنقول

١ — عجب الاب شيخو كيف يكون الانسان الاول ابكم لا يفرق بين الجماد والحي ويعتقد بالحياة والموت · وليس في هذا عجب فقد كان الانسان يدفن امواته ومعهم الانية والطعام ، وهو لا يكاد يعرف النطق فذهب المؤرخون الى انه يعتقد بالحياة بعد الموت ، وكان الانسان الاول يعتقد ان في الحجر الذي يقع من الجبل الى الارض روحاً شريرة فيهرب منه ، وكان يظن ان في تلاطم امواج البحر روحاً تعمل لاهلاكه فيذهب بعيداً عنها ·

٢ — قلنا تحت صورة الفارس الصليبي عن امبراطور الالمان الذي حرمه البابا غريغوريوس السابع انه اضطر الى الوقوف بباب البابا في رومية ثلاثة ايام بلياليها طالباً الصفح والمغفرة، فقال الاب شيخو ان هذا كذب، ونحن لانرى في هذا التكذيب غير ما رآه فيما كتبناه وليأتنا بمؤرخ واحد انكر هذه الحادثة التي هي اشهر من نار على علم في كتب التاريخ

٣ — ورأى الاب شيخو مناقضة في هذه الجملة ونحن لانرى فيها شيئاً من هذا وهذه هي « اما سكان سوريا فساميون قطعاً نزلها الساميون من جزيرة العرب منذ اول عهدها بالحضارة ، وكان البابليون يحكمونها قبل نزول الساميين فيها — اي قبل هذا

العهد – فاين وجه التناقض في كلامنا هذا ؟ ؟

٤ – قلنا ان الحثيين وهم قبائل متوحشة نزلوا سوريا في القرن الرابع عشر قبل المسيح ، فانكر الاب شيخو ان يكونوا قبائل متوحشة ، ونحن لم نقصد بهذا الا التأكيد بما عرف عنهم من مضاء العزيمة والرجولية وحب الكر والفر والخصام ، وهم لما نزلوا على المستعمرات المصرية ، كانوا متوحشين بالنسبه الى المصريين ، وما اكتشفه العلماء من تمدنهم قليل نذر ولا يرجع تاريخ الاثار المكتشفة الى ماقبل القرن الثالث عشر ، وكلها تدل على تمدن عملي جاف ، هذا الى ان لغتهم لم تفتح طلاسمها للمؤرخين حتى اليوم .

F . Hrozny , cod Hitite , paris 1922
E . Pottier , l'art Hitites dan la revue ('syria) 1920

٥ – عجب الاب شيخو كيف جعلنا الرئاسة للفينيقيين على البحر منذ اربعة الاف سنة ثم قلنا ان السومريين انزلوا الى خليج العجم من الدجلة والفرات « زوارق تجارية » ولا ندري وجه الانتقاد في هذا الرأي فلقد ذهب العلماء انه كان للسومريين زوارق قبل الفينيقيين ، ولكن الفينيقيين بزوهم في صناعة الابحار .

٦ قال الاب شيخو اننا في فصلنا السابع عن سوريا في عهد الرومان « ص ٣٠ –٣٣ » حصرنا هذا العهد بين سنتي (٦٠ – ٩٥ م) وكلٌ يعلم ان سوريا بقيت تحت حكم روميه الى ان خلفها الحكم البزنطي في اواخر القرن الرابع

واعتراض الاب صواب ولكنه لو كلف نفسه عناء النظر الى الفصل التالي لرأى اننا بدأنا هذا العهد البوزنطي بهذا التاريخ ٣٩٧ – ٦٣٤ ، اذاً فرقم «٣» قد سقط سهواً في المطبعة

٧ – اما انتقاده تاريخ وفاة فسباجيان فصحيح وهو خطأ مطبعي اصلح في باب الاغلاط المطبعية . وكذلك الخطأ في اسم الرسولين بطرس وبولس .

٨ – يقول الاب شيخو اننا ننقل ما لا نفهمه ولا نعقله . واستشهد بهذه الجملة من فصل عن مدرسة بيروت الحقوقية (وكانت اللغة الارامية تزداد انتشاراً ومدرسة بيروت الحقوقية تزيد رقياً وشهرة وكانت اللاتينية لغة التدريس) وتساءل عن علاقة انتشار اللغة الارامية ومدرسة بيروت الحقوقية ولغة التدزيس فيها ؟ ونحن نرى كل العلاقة في هذه الجملة فقد كانت الارامية تنتشر في سوريا وكانت اللاتينية على الرغم

عن كل ذلك لغة التدريس في مدرسة بيروت الحقوقيـة فاين التناقض ؟ اليست الانكليزية اليوم اكثر انتشاراً من اللغة الافرنسية واليست الافرنسية اللغـة الدولية الرسمية ؟؟

٩ – اما تل العماره ، او تل العمارنة كما يريد الاب شيخو فهـذا اختلاف بسيط وبعض المؤرخين يفضلون الاول لانه اخصر

اما ان عهدها يرجع الى القرن الرابع قبل المسيح فلا لان اكثر المؤرخين اجمعوا على القرن الخامس عشر ولقد سقطت كلمة عشر هنا في كتابنا ، ولكن الجملة التي تلي تصلح هذا الخطأ المطبعي اذ تقول . وكانت سوريا في هذا العهد تحت الحكم المصري . والحكم المصري في سوريا كان في القرن الرابع والخامس عشر

١٠ – اما ما قلناه عن الحروف الفينيقية واللغة الفينيقية فنؤكده ونقره ولو ان الاب شيخو لا ينكر هذه الاقوال ولكنه يقول انه فيها لغطاً . اما وجود ناووس في جبيل وعليه حروف فينيقية ترقى الى القرن الثالث عشر قبل المسيح . فهـذا ان صح حادث جديد . ولا يسعنا ان نؤيده في كتابنا حتى يقره علماء الآثار والمؤرخون

...

ولقد كنا نتمنى لو كان بالامكان ان يكون مدرس البيان ومؤلف الكتب المدرسية وناشر المؤلفات التاريخية في كلية اليسوعيين اصدق حديثاً واصح رواية واعف نقداً ، وما يهمنا ان لا يكون كذلك لولا انه مدرس والمدرس يطبع النشء بطابعه ، ويتسرب الى النفوس المرنة خلقه واسلوبه ومنهاجه نقول ذلك ، ولا نؤاخذه – لكم دينكم ولي دين – ولو انا اخذناه على تضليله وخطئه ، ولو اردنا ان نفند اقواله ونترسم مؤلفاته بالتصحيح والتنقيح لما بقي شيء في الوجود اسمه الاب لويس شيخو .

عمر ابو النصر

القسم الاول

سوريا ولبنان قبل الفتح العربي

الفصل الاول

سوريا ولبنان في فجر التاريخ

بدء التاريخ – الانسان الاول – نشوء الحياة الزراعية
تطور الفكرة الحكومية – قيام الدول والممالك

الانسان الاول

ليس الانسان الحاضر، ابن ساعته، هو عمل عصور، فجهود شعوب توزعت على مقدراته، فكيفته وثقفته وهذبته وشذبت من اطواره وافكاره ومظاهر حياته؛ حتى اخرجته الى الناس في القرن العشرين مثقفاً مهذباً مصقولاً.

بدء الحياة الزراعية

كان هذا الانسان في اول امره وبدء حياته عارياً وحيداً، لا يكاد يفهم من مظاهر الحياة شيئاً، ولا يكاد يتذوق من مفاخر الحضارة امراً؛

يعيش لنفسه مع عائلته فقبيلته ، وكان يتوسل الى معالجة شؤون معاشه بالصيد تارة ، والاثمار اخرى ، وظل على هذا العيش مدة من الزمن حتى عرف الزراعة ، واضطر بحكم هذه العادة الجديدة الى الاستقرار في مكان واحد ، واحتاج بطبيعة الامر الى حكومة تحرس له حقله ، وتمنع عنه عدوان جاره ، فاذا بهذا الشارد النافر يستقر مكانه ، بعد ان تجول اجيالاً في الغابات والصحراء ، ويعمل على تأسيس مزرعة صغيرة هي اول مظهر من مظاهر الحضارة في تاريخ الانسان القديم

تنازع البقاء

استقرت جماعات من بني الانسان في الاراضي الزراعية في ازمان مختلفة – ليس هنا مكان التثبت من تاريخها لجل ما يهمنا منه ان نلم به الماماً – وظل غيرها جوالاً ، فكان من هذا في تاريخ الانسان ان تقدمت امم وتأخرت شعوب وان اخذ القوي المتحضر يستعبد الضعيف المتوحش ، وما التاريخ الا عبارة عن هذا النزاع العظيم في مختلف مظاهره ، قوي يبغي التوسع ، وضعيف يقف متخاذلاً في سبيل الحياة ، والحكم للقوي فكان لا بدّ للضعيف من احد امرين اما ان يسرع متلمساً سبيل المتقدمين من الشعوب ، او ان يظل مكانه فتلتهمه جيوش الحضارة القوية والعنصرية المتحدة

نشوء الحكومات

ولما استقر الانسان في الارض تفتحت امامه سبل كثيرة في الحياة ، فاخذ يزرع واخذ يربي المواشي ، واخذ يحيك الثياب لنفسه وعائلته ،

واخذ يبني لنفسه البيوت من غصون الاشجار يزجها بقليل من الماء والتراب ، واخذ يعيش جماعات جماعات مع طوائف من ابناء جنسه يحكم كل طائفة او قبيلة زعيم او شيخ يرجع اليه افرادها في مخاصماتهم ومنازعاتهم ، حتى تجيش المطامع والاحلام في صدر احد هؤلاء الزعماء المشايخ فيتغلب على مشايخ القبائل حوله ، يردهم الى سلطانه ، متوسلا الى ذلك بالقوة والحيلة ؛ فاذا استتب له الامر فانت امام حكومة جديدة ، ودولة حديثة وليس يختلف نشوء الحكومات في مصر وبابل واشور وبلاد فارس عن هذا ، قامت الدولة الاولى في مصر منذ ستة آلاف سنة ، وكانت مصر قبل ذلك طوائف تفرّق بعضها على بعض حتى قيض لها التاريخ رجلًا من ابنائها شديد المراس ، قوي المطامع ، قضى على خصومات زعمائها بالقوة ، وضم مصر فأسست فيها اول دولة متحدة عرفها التاريخ

تاريخ سوريا

وكانت سوريا في كل ادوار تاريخها سبيلًا للفتح وطريقاً للغزو ، من رام من دول الشرق القديم فتحاً اضطر مكرهاً ان يهبطها غازياً ، يستذل سكانها ، ويستعبد امراءها ويفرض عليهم الجزية عنوة واقتداراً

وليس ذلك فقط بل انقسمت سورية بعضها على بعض ، فكان لكل مدينة اميرها ، ولكل شعب تقاليده وحكومته ، فاعجب بعد هذا ان لا يكون لسوريا تاريخ خاص بها ، جامع لحوادثها لفقدان الصلة التي تربط الحوادث بعضها ببعض ، ولأن التاريخ يقوم عادة بالآثار التي تتركها

الشعوب والحكومات ، وهذه الآثار مفقودة في سوريا الا القليل تركها فيها من استولى على هذا القطر من الدول القديمة والشعوب المتوسطة

• • •

اسئلة

١ – كيف كان بدء الحياة الزراعية ؟

٢ – ما تفهم بتنازع البقاء ؟

٣ – كيف نشأت الحكومات الاولى ؟

٤ – هل لسوريا تاريخ خاص بها ؟

***

الفصل الثاني

القطر السوري ولبنان

وصف جغرافي ، زراعي ، سياسي

جغرافية سوريا

سوريا بلاد جبلية ، تقع في الشمال الغربي من الصحراء العربية ، وشرقي البحر المتوسط وهي تمتد على شواطئه مسافة تقرب من اربعمائة ميل طولاً ومئة عرضاً

اما حدودها فالبحر المتوسط غرباً ، وبادية سوريا شرقاً وجبال

د جبال البختياري في الشمال الشرقي، د خليج العجم،
د خليج العقبة، جزيرة قبرص.

طوروس شمالاً ؛ وبادية سينا جنوباً ، وهي اشبه بالجسر يمتد بين اسيا الصغرى ، وبين مابين النهرين ومصر، د يعبر عنها بلفظ عام الهلال السوري الخصيب د نجمتها جزيرة قبرص.

تأثير الاقليم والارض

ولقد اكبر المؤرخون في هذا العهد ماللاقليم ولطبيعة الارض من تأثير في السكان ، فان كانت البلاد جبلية كثيرة المنعرجات كان لا بد لسكانها تأميناً لمعاشهم من جهد ومشقة ، وكان لا بد لهم من الانصراف الى لون من الحياة لا يساعدهم على التثقف ولا يحملهم على العلم ؛ فلا تعجب بعد هذا ان يكون السوريون عالة على غيرهم في العلوم والمعارف ولا تستكبر ان لا يحمل لك التاريخ فى ثناياه مدنية سورية راقية مستقلة او علماً سورياً طريفاً

وكانت الارض نفسها تساعد على التجزئة ، وتعمل على الانقسام فقد كان يسهل على السوري كثيراً ان يعيش وحده لا يعوز احداً ، ولم تكن طبيعة الارض تتطلب عمل الجماعات الكبيرة كما هي الحال في اشور وبابل ومصر ، بل كان من السهل على السوريين ان يأتوا باحسن النتائج اذا عملوا جماعات صغيرة متفرقة ، فكثرت الحكومات ، وتعددت الجماعات ، وعاش كل مستغنياً مستقلا

وكان على السوريين ان يظلوا متيقظين ، حريصين على بلادهم ، ذلك انه كان على مقربة منهم دول قوية وقبائل عظيمة ، ومع انهم اضطروا في بعض الاحيان لأن يخضعوا لحكم الدول الشرقية القوية فان روحهم كان حراً ، وثوراتهم كثيرة وعديدة

التجارة السورية

وكان للتجارة شأن عظيم في تاريخهم فقد انصرف سكان الداخلية للاتجار بواسطة القوافل وعمل اهل الساحل على ارتياد البحر فكانوا تجاراً مستعمرين ، وساعدت سوريا سكانها ؛ فقد كانت واقعة على ممر طرق ثلاث وعلى مقربة من البلاد التي قامت فيها المدنيات الاولى

وكان هذا القطر معين الحدود فالبحر والصحراء والجبال تحيط به من جميع اطرافه ، وخلقت الطبيعة فيه الكثير من الحواجز الطبيعية ، فكان لذلك اثر عظيم في اختلاف الشعوب وتباين السكان الذين سكنوه قديماً وحديثاً تربية وثقافة وسياسة

وسوريا بلاد تكثر فيها البراكين خصوصاً في جهات حمص وحماه ؛ وحوالي سنة (٤٠٠٠ – ٣٠٠٠) قبل المسيح كانت الاحراج تغطي وجه الجبال حتى شاطيء البحر وكانت الحيوانات الضارية تأوي الى ربوعها

سكان لبنان الاول

وكان سكان لبنان الاول من الصيادين ، ولما كانت سوريا غنية بغاباتها اثارت ثروتها الطبيعية حسد جيرانها ، فهبط عليها فاتحاً غير ملك واحد ، من ملوك الشرق القديم ، ولما تناقصت الاحراج في سوريا ، كثرت فيها الفاكهة وكان الزيت والزبيب والقمح من اهم صادراتها ، ويقول بعض المؤرخين ان اصل الزيتون من سوريا فان لم يكن منها فقد انتشر على شواطيء البحر المتوسط بعد ان زرع

في ارضها وعرف سكانها ثمره [١]

سوريا القديمة [٢]

اما سكان سوريا فساميون قطعاً . نزلها الساميون من جزيرة العرب منذ اول عهدها بالحضارة ، وكان البابليون يحكمونها قبل نزول الساميين فيها سنة (٣٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م.) وكان ذلك بدء عهدهم بالتوسع والملك وهم شعب تغلبت عليه العنصرية السامية وكان تأثيرهم في سوريا عظيماً في اللغة والتقاليد ، وفي الآثار المكتشفة حديثاً ما يدل على ان بعض ملوك بابل كانوا يحملون الاخشاب من جبال لبنان الى بلادهم

ونزل الساميون بعد هذا العهد على سوريا والعراق وهم بدو رعاة يعيشون عشائر وقبائل بزعامة اكبرهم وحالتهم الماضية لا تختلف عن حالتهم الحاضرة اللهم الا قليلاً وكان (الاموريون) اولهم ثم تسلل الاراميون بعدهم الى البلاد فقضوا على السلطة البابلية في سوريا واخذوا ينشئون المدن فيها وكان المصريون قد بلغوا درجة رفيعة من التمدن والصناعة والقوة فهبطوا على الشرق القديم وامعنوا فيه فتحاً وغزواً فسقطت سوريا امامهم بعد مقاومة قليلة وكان الحكم المصري في سوريا سيء الادارة قاسياً شديداً فثار السوريون غير مرة على حكامهم بيد ان ذلك لم يجدهم فتيلاً لانقسامهم وتفرقهم

(١) كان سكان لبنان الاول يقيمون في المواقع القريبة من السهول الواسعة والشواطئ البحرية كرأس نهر الكلب ويأوون احياناً الى مغاور قريبة من ينابيع المياه ويرتزقون من صيد الوحوش والاسماك ، وكانوا يقتاتون باصداف البحر ولحوم الوحوش البرية

(٢) ظل الحكم البابلي ثم المصري في سوريا من سنة ٢٥٠٠-١٤٠٠ قبل المسيح

ولما تقدم الحثيون في القرن الرابع عشر قبل المسيح وهم قبائل متوحشة من شمالي اسيا الصغرى الى سوريا وفلسطين وكان الحكم المصري قد تغلب عليه الضعف والفساد وجدوا سوريا مجزأة بعضها على بعض فافتتحوها عنوة بمساعدة بعض امرائها لهم . وكانت السلطة في سوريا يومئذ لملوك مصر ، إلا ان هؤلاء كانوا ضعاف الارادة قليلي الحزم . فلم يعملوا على رد هذا الفاتح الجديد الذي انشأ في سوريا دولة جديدة على انقاض الدولة المصرية

...

اسئلة

١ – صف موقع سوريا الجغرافي ؟
٢ – لماذا لم تقم في سوريا مدنية راقية ؟
٣ – قص علينا تأثير الاقليم والجغرافية السورية على السكان ؟
٤ – من كان اول سكان لبنان ؟
٥ – بماذ اشتهر السوريون ؟
٦ – ما تأثير البحر على سكان الساحل ؟
٧ – ما تعرف عن تاريخ سوريا القديمة ؟

***

الفصل الثالث

الفينيقيون في لبنان والسواحل

البحر والابحار — المراكب الاولى — التجارة الفينيقية
علاقة المدن الفينيقية بعضها مع بعض

الفينيقيون في البحر

نزل الفينيقيون السواحل السورية من الشرق — الخليج العجمي — ووقفت جبال لبنان امامهم سداً تمنعهم عن التطلع الى ما ورائها من أرض خصبة ومدن عامرة ، فارتضوا البحر قبلة لهم وامدهم لبنان بالخشب فصنعوا السفن وغامروا بها فوق الامواج ؛ ولم يتركوا البر وشأنه بل سيروا فيه القوافل التجارية بين الشاطيء واقصى الحدود السورية

اما اسبق الامم الى البحر والإبحار فاقربها الى الانهر ولا شك ، ويقول بعض المؤرخين ان السومريين وهم من سكان بابل الاول انزلوا الى الخليج العجمي من الدجلة والفرات زوارق تجارية منذ خمسة الاف سنة ، وكان للمصريين حوالي سنة (٢٥٠٠) قبل المسيح مراكب صغيرة تسيرها المجاذيف وهي لا تزال ظاهرة الاثر على الآثار المصرية

المراكب الاولى

وكانت هذه المراكب في اول امرها اشجاراً كبيرة رماها الانسان في البحر رغبة منه في الاستعانة بها على السباحة . ثم لما ترقت معارفه عمل

على تجويفها حتى اصبحت زورقاً عادياً كبيراً

وكانت الملاحة في البحر المتوسط بالمجاذيف اسهل منها بالاشرعة لاختلاف الريح وكثرة الانواء ، التي تمنع المركب عن السفر اياماً ؛ اذا كان يعتمد على الاشرعة فحسب ، فان كان اعتماده على المجاذيف سهل عليه السفر في اي وقت شاء وايان اراد ، فاذا ثارت العاصفة امكنه الالتجاء الى الشاطيء ، حيث تكثر المنعرجات والخلجان

المدن الفينيقية

وكانت فينيقيا مدناً متفرقة لكل مدينة اميرها وحكومتها الخاصة لا يربط بعضها ببعض الا رباط الصداقة ، ولم تتحالف الا ساعة الخطر لرد غاز وصد عدو ، فاذا كان الخطر ، كانت فينيقيا جبهة واحدة ، وكان على رأسها جميعاً امير من امرائها المشهورين ، وكان شرف الامارة يرجع اكثر الاحيان الى امير صيدا او صور ، ولكن هذا لم يكن يرد مقدوراً او يدفع محذوراً ، فانى لفنيقيا وهي الضعيفة الصغيرة ان ترد عادية الدول الشرقية عنها ؛ كانت تقف مستميتة فتغلب على امرها ؛ وتفرض على مدنها الجزية ؛ وعلى امرائها الفدية ؛ فاذا كان الخصم شديد الحول كثير البطش ، صلب امراءها وسبى نساءها ، وهدم مدنها ؛ ثم ضمها اليه

ولكن فينيقيا في اقصى الشرق ؛ فهي بعيدة عن مصر ؛ وبعيدة عن بابل واشور وفارس ؛ فاذا كانت الصدمة الاولى تركها الفاتح لشأنها وعاد ادراجه بعد ان يأخذ عليها العهد ان تكون له لا عليه ؛ وتعود هي نفسها تلم شعثها ؛ وتوثق ما تفرق من امرها ؛ وترتق ما فسد من شؤونها وهي بعد ذلك تساير الخصم اتقاء شره ، وتهاديه خوفاً منه

التجارة الفينيقية

وليس يساعد فينيقيا مركزها الجغرافي ان تكون بلاداً زراعية ؛ ارض ضيقة قليلة الخصب ، تعجز عن كفاء سكانها ؛ فهم مضطرون بحكم ارضهم الى تيمم البحر وارتياد مجاهله ، نزلوه منذ اربعة الاف سنة ، واخذوا يجوسونه ما شاءوا ، امراء البحر وسادة الماء ، يحملون متاجرهم ومصنوعاتهم الى اقصى الارض في البحر المتوسط فاذا اقتربوا من المرفأ العامر ، فرزوا بضائعهم على ظهر المراكب ، واوقدوا النار ايذاناً بقدومهم ، فاذا تجمهر الناس على الشاطيء ، واستعرضوا الجديد من هذه البضائع ، اخذوا بوضع ما يدفعونه فيها من ثمن على الارض ، ولا يزالون يزيدونه ما برح الفينيقيون لا يحركون ساكناً ، فاذا كانت اشارة الرضى تقدم الفينيقيون ببضائعهم وتقدم المشترون باثمانهم

اما عباداتهم ومناسك ديانتهم فقد غلب الفسق والفجور عليها ! عبدوا القوى الطبيعية من شمس ونار وعواصف ، وكان اشهر آلهتهم (عشتروت) و (ادونيس) ، وكانوا يقربون الذبائح لها حتى الاطفال

اسئلة

١ — من اين اتى الفنيقيون الى الساحل ؟

٢ — لماذا انصرف الفنيقيون الى ارتياد البحار ؟

٣ — من اسبق الامم الى ركوب البحار ولماذا ؟

٤ — كيف اخترع الانسان الزوارق الاولى ؟

٥ — قص علينا ما تعرفه عن المدن الفنيقية وعلاقاتها بعضها مع بعض ؟

٦ — من كان يقود فينيقيا حين الخطر ؟

٧ — ما تعرفه عن المساومة بين الفنيقيين وزبائنهم ؟

الفصل الرابع

فينيقيا ، تجارتها ، لغتها

مستعمرات الفنيقيين

كانت مراكب الفنيقيين صغيرة خفيفة معرضة للخطر والغرق ، وقد تكون زوارقنا الصغيرة الحاضرة اسلم منها عاقبة فاعجب لهؤلاء القوم يبلغون بهذه المراكب الصغيرة الجزر الانكليزية ؛ ويخوضون عباب الخضم ، ويستقبلون اخطاره ، في عهد لا تزال فيه الملاحة طفلة صغيرة

تقدم الفنيقيون في اول الامر الى جزيرة قبرص ونزلوا سنة (١٥٠٠) ق.م. الى كريت والجزر في البحر الارخبيل ، واحدثوا فيها محطات تجارية اجلاهم عنها اليونانيون اول عهدهم بالاستعمار سنة (١٠٠٠) ق.م ، فوجهوا انظارهم الى افريقيا ، واتخذوا من قرطاجنة (٨٠٠) ق.م. قاعدة بحرية لمملكة عظيمة مستقلة ، ثم ذهبوا الى اسبانيا وسيسيليا وسردينيا ، وعبروا خليج جبل طارق الى الجزر البريطانية حيث حملوا تجارتهم الى اهلها .

التوسع الفينيقي

وكان للفينيقيين على الارجح محطات تجارية في البحر الاحمر يؤكد ذلك علاقاتهم الحسنة مع الحكومة المصرية [1] ومن العجب تكييف

(١) اظهرت حفريات المسيو مونته وهو عالم اثرى انفذته الحكومة الفرنسوية الى لبنان يستكشف آثاره ان المصريين بنوا في جبيل هيكلا لآلهة البلاد وذلك حوالي سنة (٢٥٠٠) ق م وانهم كانوا يكرمون فيه (سيدة جبيل) مصورة بصورة آلهتهم ايزيس

الفينيقيين لعاداتهم واذواقهم وفاقاً لعادات واذواق الامم التي كانت علاقاتهم معها اعتبر ذلك في المصريين الذين كانوا يكرهون الاغراب ويطردون من بلادهم كل غريب كيف احبوا الفينيقيين حتى انهم اذنوا لهم بالسكن في العاصمة وبناء معبد فيها

كذلك ساعد الاشوريون تجارهم وحموا قوافلهم حين مرورها بمملكتهم

التجارة الفينيقية

وكان الفينيقيون ينقلون المصنوعات الشرقية الى كل بلاد الشرق والغرب في التاريخ القديم فلقد حملوا المصنوعات السورية والبابلية والمصرية الى ايطاليا وسواحل البلطيك وحملوا من هذه مصنوعاتها الى الشرق . وكانت الامم تبتاع هذه المصنوعات وتعمل على تقليدها وحمل الفنيقيون ايضاً معهم في سياحاتهم التجارية هذه تمدن الشرق الى الغرب وعادات الغرب الى الشرق فكانوا رسل التمدن في الشرق القديم

ولقد اخذ الفينيقيون بكل اطراف التجارة في عهدهم فاتجروا بالاقمشة والحبوب والزيوت والجلود والاثمار والرقيق والجواهر والرياش والفخار المزين بالالوان ، وحملوا الاخشاب من لبنان الى مصر وبابل ، واشتهروا بانواع اختصوا فيها من الاصباغ ، وقد اسماهم اليونانيون (بالفينيقين) تنويهاً بشهرتهم في هذه الصناعة ، وكانوا يدعونهم اولاً (الصيداويين) لان صيدا اول المدن الفينيقية شهرة وظهوراً في التاريخ القديم . فزادوا غنى وامتد العمار والبذخ الى اقصاه في مدنهم المختلفة

على شواطئ سوريا وما برحنا نجد بين الاثار المصرية رسوماً تمثلهم وهم في مراكبهم في عرض البحار

بين مصر وفنيقيا

ولما اكتشفت الرسائل التي دارت بين ملك مصر وعماله في سوريا سنة (١٨٨٨ ق.م.) في تل العمارة في مصر وهي صحائف فخارية يرجع عهدها الى القرن الخامس ق.م. وكانت سوريا في هذا العهد تحت الحكم المصري كما هو معلوم وجد المؤرخون دليلاً جديداً على علاقة سوريا وفنيقيا بمصر اذ ان كثيراً من هذه الرسائل كانت بين ملك مصر والامراء السوريين المختلفين وامراء المدن الفنيقية المختلفة ايضاً امثال بيروت وجبيل والبترون وصيدا وعكا وصور

اللغة الفنيقية

ولكن اعظم اعمالهم بل اعظم خدماتهم للتمدن هي الحروف الهجائية التي كانت مستعملة عندهم حوالي سنة (٩٠٠ ق.م.) والتي حملوها معهم الى البلاد اليونانية وهؤلاء اخذوها عنهم وعدلوها قليلاً حتى تطابق اذواقهم وعن اليونان اخذها الرومانيون وعن هؤلاء اخذها الاوربيون

اما اللغة الفينيقية فاول اللغات التي وضعت في احرف هجائية وذلك قبل المسيح باثنى عشر قرناً والفينيقية لغة سامية وهي قسيمة اللغة العبرانية وشقيقتها وهي اللغة التي استعملها ابناء الساحل السوري نحواً من ست او سبع مئة سنة بدايتها القرن الثاني عشر قبل المسيح . ومن الغريب ان الذين نشروا حروف الهجاء وانشأوا منها حروفاً للغتهم لم

يتركوا لنا اثراً كتابياً ، ولعل سبب ذلك ان كتاباتهم كانت بالاكثر تجارية وعلى مادة سريعة التلف ، فاقدم الكتابات الفنيقية لا يرجع الى ما هو قبل القرن السادس قبل المسيح واكثرها مما وجد في قبرص ومصر والمستعمرات الفينيقية لا على الساحل السوري . وظلت الفينيقية لغة الساحل حتى اقتلعتها اللغة الارامية

...

اسئلة

١ – ما عدد المستعمرات الفينيقية ؟
٢ – لماذا احب المصريون الفينيقيين وسمحوا لهم بالسكنى في بلادهم ؟
٣ – ما الذي تعرفه عن التجارة الفينيقية
٤ – تكلم عن علاقات فينيقيا ومصر
٥ – لماذا لم يترك الفينيقيون اثراً كتابياً ؟

***

الفصل الخامس

سوريا في عهد اليهود واشور وفارس

الاراميون واليهود في سوريا

تسللت عناصر ثلاثة الى سوريا في خلال القرن العاشر قبل المسيح ، الاراميون وهم شعب سامي انشأوا عدة ممالك صغيرة في سورية اهمها

مملكة دمشق ، وقد تمكنت هذه المملكة غير مرة من رد الاشوريين والاسرائيلين عن سوريا[١]

ثم بنو اسرائيل وهم بدو ساميون هبط بعضهم سوريا وذهب القسم الآخر الى مصر ، ولم تطل مدة اقامته فيها فغادرها الى فلسطين حيث اخوانه الاول قد استوطنوا وكان بينهم وبين الكنعانيين[٢] حروب شديدة انتهت بانتصار الاسرائيليين عليهم وتأسيسهم اول دولة يهودية في التاريخ

ثم الفلسطينيون وهم قوم نزحوا من جزيرة كريت وكانت بينهم وبين اليهود مناوشات وحروب انتهت بانتصار اليهود وتغلبهم على مناوئيهم واعدائهم[٣]

المملكة اليهودية

ليس لهذه المملكة شأن في التاريخ القديم من حيث اثارها وادابها

(١) ملكت الدوله الارامية في دمشق ثلاثة قرون وكان بينها وبين اليهود والاشوريين حروب عديدة

(٢) الكنعانيون قبائل سامية استوطنت جنوبي سوريا ، وكانوا يتكلمون بلغة دعوها فيما بعد العبرانية لان بني اسرائيل اخذوها عنهم . وسكن الاموريون في وادي العاصي

(٣) اخذ يتسلل في القرن الثاني عشر والثالث عشر الى سوريا شعوب غريبة اتت من الغرب عن طريق اسيا الصغرى واليونان وقد تمكنت هذه الشعوب من القضاء على ممتلكات المصريين ودولة الحثيين في سوريا ، ومنهم قوم يقال لهم (الفلسطينيون) نزلوا جنوبي الكرمل علي شاطيء البحر فاطلق اسمهم على تلك الارض كلها فدعيت (فلسطين)

وفتوحاتها، فقد كانت في كل ذلك مملكة ثانوية وليس يهمنا من تاريخها الا ان عمرها كان قصيراً جداً، وان ضعفها كان ظاهراً

كان اليهود بعد خروجهم من مصر وانتشارهم في فلسطين اثني عشر سبطاً يدير شؤونهم ويحكم بينهم (قضاة) منهم، ثم تاقوا الى الملك فمسح احد قضاتهم في القرن الحادي عشر قبل المسيح شاول ملكاً عليهم وخلفه داود فوسع مملكته من نهر العاصي حتى البحر الاحمر؛ وجعل قاعدتها اورشليم، وجاء بعده سليمان وبنى في اورشليم الهيكل والبلاط؛ واستعان بمهرة من الصناع الفينيقيين اوفدهم اليه حيرام ملك صور، وبعد وفاة سليمان سنة (٩٥٠ق.م) انشقت اسباط اليهود الشمالية عن اسباط اليهود الجنوبية وتألفت مملكتان يهوديتان مملكة اسرائيل وعاصمتها السامرة (سبطيه قرب نابلس) ومملكة يهوذا وقاعدتها اورشليم (القدس الشريف)

وآذن هذا الانقسام بانهيار المملكة؛ فقد كان اليهود عصبة ضعيفة لا تدفع محذوراً وان كانت متحدة في جبهة واحدة، فكيف بهم وقد دب الانقسام اليهم وتسلل الضعف الى صفوفهم، وفي سنة ٧٢٢ ق.م. هاجم سرجون مملكة السامرة فدمرها. وقضى (نبوخذنصر) ملك بابل سنة ٥٨٦ على الدولة الثانية وعاصمتها القدس وحمل اهلها اسرى الى بابل حتى اطلقهم كورش الفارسي مؤسس المملكة الفارسية

ولقد اشتهر اليهود في التاريخ بما ذهبوا اليه من توحيد الله وعبادته وحده. فكانوا اسبق الامم الى المذهب التوحيدي، واسرعهم الى تفسير القوى الطبيعية الغامضة بما يوافق ذلك العصر

اشور وفارس

وتتابع على حكم سوريا بعد هذا العهد دولتان عظيمتان اولهما اشور وهي دولة عسكرية نشأت في جنوبي العراق ، واخذت حملات ملوكها تتوالى على سوريا منذ عهد اشورنا سيربال ٨٨٤ – ٨٦٠ ، حتى دانَ لهم معظم البلاد بعد معارك عظيمة (١)

ولما ضعفت اشور وتداعت المملكة وسقطت نينوى العاصمة امام حملات الحلفاء من البابليين والفارسيين والماديين ظهرت في الشرق القديم في فارس دولة جـديـدة ، كان مؤسسـها الاول كورش ، فسقطت سوريا بدورها تحت النفـوذ الفارسي حتى ظهر الاسكندر المقدوني واستولى عليها

وكانت سوريا ايالةً فارسية وصيدا عاصمة الايالة ؛ واضحت السفن الفينيقية وعددهـا ٣٠٠ نواة للاسطول الفارسي الذي حارب اليونانيين

...

اسئلة

١ – سمِّ العناصر التي دخلت سوريا في خلال القرن العشرين ؟

٢ – كيف دخل بنو اسرائيل الى سوريا ؟

٣ – اذكر ما تعرفه عن المملكة اليهودية ؟

٤ – من اطلق اليهود من الاسر ؟

٥ – تكلم عن استيلاء اشور وفارس على سوريا ؟

---

(١) ولا يزال في لبنان من عهد الاشوريين بعض الآثار الدالة على ثبوت قدمهم فيه ، فمن ذلك ما يرى في مضيق نهر الكلب فان هناك عدا الآثار المصرية التي تمثـل

الفصل السادس

سوريا في عهد اليونان — الاسكندر ومملكة السلوقيين

من سنة ٣٣٣ — ٦٤ ق م

نظرة في الوحدة السورية

رأينا في الصفحات الماضية كيف انتقلت سوريا من حكم دولة الى اخرى فهي لم تعرف الاستقلال الا غراراً ولم تتمكن من تأسيس دولة قوية واحدة مع ان هناك جامعة بين سكانها كان يجب ان تساعد على الوحدة وان تعمل على لم الشعث فكان هناك للوحدة السياسية جامعة الارض واللغة والتقاليد وكان ضعف الوحدة السياسية عند

رعمسيس الثاني اكثر ملوك مصر امعاناً في الفتح قائماً في ثوبه الملكي امام معبوده (راع) احد الآلهة المصرية ، وثوتمس الثالث الذي سار على آثار رعمسيس الثاني في الفتوحات والغزوات ، خمساً من الصفائح الاشورية فيها تصاوير وكتابات شتى لملوك اشور الذين قطعوا النهر في ذلك المكان ، فالكتابات بالقلم المسماري تتضمن تاريخ غزوات الاشوريين لمصر والسواحل السورية ، ومع الكتابة صور ملوكهم بازيائهم الفاخرة ، اخصها رسم أحد ملوك اشور بلحية طويلة مجعدة وهو لابس رداء سابغ الذيل وعلى رأسه تاج ملوك اشور . وهناك اثار اشورية غيرها في جبل اكروم من اعمال عكار وفي وادي بريسة على مسافة عشرة كيلو مترات من الهرمل

السوريين من الاسباب التي عملت على اذلالهم وتغلب الدول الكبيرة عليهم وكان هناك ايضاً سبب جغرافي وهو ان سوريا كانت تقع في طريق هذه الدول فان كانت الدولة مصر فلم تكن لتتكمن من النزول الى بابل او اشور الا باقتحام سوريا ، وكانت مصر وهي ضعيفة لقمة سائغة لاشور وفارس وطريق الفتح اليها القطر السوري ، فلا عجب بعد ذلك اذا ظلت سوريا مفككة العرى مشتتة الجامعة لانه يصعب على الجامعات السياسية ان تقوى وتنمو في غير جو مطمئن يمتد عليه السلام مدة طويلة. ولقد تغلبت على سوريا كل دول الشرق القديم فلما ضعفت الوحدة السياسية في الشرق ولمع نجم الغرب . نزل اليونانيون بقيادة الاسكندر المقدوني الى سوريا فكان هذا القطر احدى المقاطعات التي تؤلف الامبراطورية العالمية الكبرى التي اراد الاسكندر انشاءها. ولما توفي الاسكندر وقام بالامر خلفاؤه من بعده وقواده في جيشه واقتسموا الامبراطورية فيما بينهم كانت سوريا حصة السلوقيين نسبة الى سلوقي احد قواد الاسكندر (٣١٢) ق م . وكانت عاصمتها انطاكية في شمالي سوريا ، وهذه هي المرة الاولى في التاريخ القديم تتألف في سوريا دولة منظمة بعد الدولة اليهودية البسيطة في شكلها وادارتها ايام داود وسليمان

المملكة السلوقية

ولقد قسم سلوقي الاول – (٣١٣–٢٨١) مملكته الجديدة الى اثنين وسبعين ولاية ، وبنى انطاكية ، شيد اللاذقية ، وقد نازع ملك مصر السلوقيين على البقاع ودمشق وبلاد الاردن فكانت

بين المملكتين ملاحمة انتهت بانتصار السلوقيين في موقعة بانيون سنة (١٩٨) ق م

واشتهر السلوقيون ببناياتهم العظيمة فزانوا مدنهم بالاروقة والمسارح وميادين الرياضة والهياكل الفخمة

وانشأوا مستعمرات عديدة اسكنوها بالجنود القديمة من اليونانيين منها سلوقية على نهر دجلة والصالحية على الفرات ، وانتشرت على عهدهم الحضارة اليونانية في سوريا ، ونبغ في السوريين بعض الشعراء والادباء .

واعظم الملوك السلوقيين بعد سلوقي انطيوخوس الاول (٢٨١ — ٢٦١) وكان ملكاً عظيماً ، وانطيوخوس الثالث ٢٢٣ — ١٨٧ وهو الذي اغار على بلاد اليونان واشتبك في قتال مع الرومان فغلبوه فيه واخذوا منه الاقاليم الواقعة في شمالي جبال طوروس ، وانطيوخوس الرابع ١٧٥ — ١٦٤ وهو الذي اراد فتح مصر وكاد يفتحها لولا معارضة رومية له

• • •

اسئلة

١ — عدد الاسباب التي قضت على الوحدة السورية ؟

٢ — كيف انتقلت سوريا من حكم الشرق الى الغرب ؟

٣ — تكلم عن اعمال سلوقي الاول ؟

٤ — اذكر اعمال السلوقيين العمرانية ؟

***

الفصل السابع

— سوريا فى عهد الرومان —

القضاء على اليهود ، السيد المسيح ، زينب التدمرية

٦٤ ق م — ٩٥ م

رومية في سوريا

لم تعمر الدولة السلوقية طويلاً فقد سقطت لما تقدم الرومان بخيلهم ورجلهم سنة ٦٤ق م وضمت سورية الى (رومية) وسميت مقاطعة سوريا وكانت الحالة في سوريا حسنة جداً فقد زادت تجارتها وترقت صناعتها تحت الادارة والسلام الرومانيين وكان السوريون يعتقدون انهم قد اصبحوا من الرعايا الرومانيين لهم من الحقوق ما للروماني وعليهم ما عليه. الا ترى بطرس الحواري كيف نادي بذلك على ملأ من الناس ثقة منه ان في هذه الحجة ما يكفيه شر اعدائه وخصومه

القضاء على اليهودية

ولم يرق اليهود الحكم الروماني فثاروا سنة ٦٦م وشقوا عصا الطاعة فزحف عليهم الامبراطور فسباجيان وحصرهم في اورشليم غير انه توفي قبل فتحها . فقام بالامر بعده تيطوس ابنه وافتتحها عنوة واحرقها بالنار وهدم الهياكل حجراً حجراً (٨٠ م) وقتل الكثير من اليهود وكان في ذلك القضاء الاكبر على الحكم اليهودي واستقلاله الذاتي فتشتت اليهود بعد هذا الفاجعة في اقطار العالم

سوريا واهميتها

وكانت سوريا من اهم مقاطعات الامبراطورية يرسل اليها الامبراطور امهر القواد واقدر الساسة الرومانيين. وكان لا يزال في سوريا بعض المدن المستقلة مركزياً والتي تمتّ بحبل من الاخلاص والعبودية الى الحاكم الروماني نائب الامبراطور

وكان بعض السوريين يتطوعون في الجيش الروماني فيرسَلون احياناً الى مصر وافريقيا والحدود الالمانية وكان عدد سكان انطاكية العاصمة (٣٠٠) الف نسمة وكانت التجارة السورية بالاقمشة الملونة والزيت والحبوب تملأ اسواق العالم

اللغة اللاتينية

ولما اجتاح القائد الروماني بومبي البلاد السورية دخلت سوريا لغة جديدة هي اللغة اللاتينية التي اصبحت لغة المحاكم والتشريع والسياسة وكان الرومانيون في سوريا قلائل اقام معظمهم في المدن الساحلية والمراكز التجارية فاصابهم بتوالي الاعوام ما اصاب المستعمرين اليونان من الانقراض امام العنصرية السورية

اللغة الارامية

وكانت الارامية في ذلك العهد لغة البلاد وكان العنصر الغالب في كلا الحالين العنصر السامي لا العنصر الاوروبي

وخلاصة القول ان اللغة الشائعة في سوريا ولبنان من فجر التاريخ حتى الفتح العربي كانت ابدا لهجة سامية امورية اولاً فارامية وفينيقية

وعبرية ثانياً وان اللغات غير السامية من فارسية ويونانية ولاتينية عجزت ان تسيطر على غير الدوائر الرسمية وليس من شك اليوم ان اللغة الارامية وأخصَّها السريانية كانت لغة السواد الاعظم في سوريا ولبنان وانها كانت السائدة في القرن السادس قبل المسيح الى بدء القرن التاسع بعده

السيد المسيح

وفي عهد الامبراطور اوغسطس ربيب القائد الاشهر يوليوس قيصر ولد المسيح عليه السلام في مدينة الناصرة من اعمال فلسطين واخذ بالتبشير والدعوة لعبادة الله جل شأنه وسار تلامذته من بعد على سيرته وانتشرت المسيحية حتى اصبحت دين العالم الاروبي وبعض الاسيوي والاميركي والافريقي وهي اكثر الديانات اشياعاً وانصاراً

الفرس والرومان وتدمر

وكان الفرس يعملون سراً على اكتساح سوريا فلما سنحت لهم الفرص تقدموا نحوها وهددوا ولايات الامبراطورية الشرقية واحرقوا انطاكيه عاصمة سوريا سنة ٢٦٠ م فانبرى لردهم زعيم عربي يسمى أزينه سليل امراء تدمر فحفظ له الرومان هذا الصنيع واطلقوا يده في حكم تدمر وما جاورها من البلاد

زينب التدمرية

ولما توفي في سنه ٢٦٧ م قامت بالامر بعده امرأته زينب وكانت ذات دهاء وحزم فحدثتها نفسها بالاستقلال وطمحت الى مصر فافتتحتها

وهددت اسيا الصغرى الا انها غلبت على امرها فتراجعت حتى تدمر وشدد الرومان عليها الحصار حتى سلمت سنة ٢٧٢ م فحملوها الى رومية حيث قضت نحبها ودمر الرومان تدمر بعدها حتى لا تقوم لها قائمة .

...

اسئلة

١ – كيف كانت الحالة في سوريا حين تقدم الرومان اليها ؟
٢ – كيف ضربت اورشليم ؟
٣ – ما تعرف عن اهمية سوريا في عهد الرومان ؟
٤ – متى ظهر السيد المسيح ؟
٥ – تكلم عن تأثير اللغة اللاتينية والارامية ؟
٦ – ماذا تعرف عن زينب العربية التدمرية ؟

***

الفصل الثامن

سوريا في عهد الدولة البزانطية

٣٩٥ – ٦٣٤ م

الحالة العمومية – التجارة والصناعة – بين فارس والروم
السوريون وسوء الادارة

الحالة العمومية

لما انتقلت عاصمة الامبراطور الرومانية من الغرب الى الشرق

ظلت سوريا تابعة للامبراطور الروماني في القسطنطينية ولم يكن حظها حسناً ولا عهدها براقاً لامعاً فقد تجزأت فيه الى اقسام كثيرة فاصبح شمالها ثلاثة اقسام وقسمت فينيقيا الى قسمين فينيقيا البحرية وعاصمتها صور وفينيقيا التاريخية وقد ضمت اليها بعلبك والشام وحمص وتدمر ولم تكن السياسة الرومانية في سوريا عادلة ولا منصفة فقد زادت الضرائب وقلت الاعمال الاصلاحية واخذ الضعف في هذا العهد يتسلل الى جسم الامبراطورية الرومانية فاخذت تعمل على دفعه ما استطاعت بتحصين المدن وانشاء المراكز للدفاع عن الحدود

مدرسة بيروت الحقوقية

وكانت اللغة الارامية تزداد انتشاراً ومدرسة بيروت الحقوقية تزيد رقياً وشهرة وكانت اللاتينية لغة التدريس الرسمية فكان يقصدها الطلاب من كل الانحاء حتى من القسطنطينية نفسها ولكن ثارت الطبيعة فجأة وزلزلت الارض زلزالها سنة (٥٥٥) م فانهارت المدرسة وهلك ثلاثون الفاً من السكان وكانت الهزة ساحلية عمومية الا انها اصابت بيروت بالشر الاكبر والنكبة العظمى

وكان السوريون غاضبين ناقمين على الادارة الرومانية وقد طالبوا بالاصلاح فلم يلب اولوا الشأن في العاصمة طلبهم وزاد الحالة خرقاً ظهور الارثوكسية في القسطنطينية ونشوء الاختلاف بسببها بين افراد الشعب حتى في المقاطعات والمستعمرات الرومانية

التجارة والصناعة

اما التجارة السورية فكانت زاهرة برغم الحالة السياسية وكان السوريون يقصدون العالم بمراكبهم وكان لهم مستعمرات مهمة في ايطاليا واسبانيا وبلاد غاليا ويقول بعض المؤرخين ان الفينيقيين انفسهم هم الذين اتوا بالحرير من الصين وكانت الصناعة السورية راقية ايضاً فادوات الزينة والنحت والرسم كانت في صناعتها تختلف عن الصناعة الرومانية المعروفه والفن اليوناني القديم وكثر التلوين في الصناعة السورية واستعملت الاحجار للبناء بدلاً من الاجر والفخار وهو المستعمل لذلك العهد

بين فارس والروم

اما الروح الوطنية فكانت قوية في سوريا ولكن انقسام السوريين عمل على تخاذلهم فلم يستفيدوا من هذه الروح في فترة من الزمن كانت فيه الامبراطورية الرومانية في شاغل عن سوريا والحدود السورية بفتوحاتها في افريقيا واوروبا

فكانت الحامية الرومانية متروكة وشأنها تدبر امرها بنفسها في القطر السوري فلما تحركت القبائل العربية الضاربة حول العراق ونواحي الحيره بامر النعمان ملك العراق وبرأي سيده ملك فارس وهو من العائلة الساسانية نحو سوريا لافتتاحها ردهم الغساسنة عمال الروم وهم من العرب وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى نشأ بين الغساسنة والروم خصام فتح ابواب سوريا على مصراعيه للفرس ثم للعرب من بعدهم

خسرو ملك فارس

ولقد تقدم خسرو ملك فارس سنة (٥٤٠) م الى سوريا بطريق المنبج حتى حلب فاحرقها لانها عجزت عن دفع الغرامة الهائلة التي فرضها عليها

ولما انتهى خسرو من حلب تقدم الى انطاكيه عاصمة سوريا فافتتحها عنوة واخذ اهلها اسرى وبذلك سقطت هذه المدينة التاريخية عن منزلتها السامية في الشرق القديم

ورأت الامبراطورية الرومانية عجزها عن رد خسرو فتعاهدت واياه ان تعطيه ما طلب من بلاد ومال

وفي سنة (٦٠٢) م قتل (فوكاس) احد النبلاء في القسطنطينية الامبراطور موريس فتقدم خسرو الى سوريا للاخذ بثأر الامبراطور وهو في الحقيقة يعمل لحسابه وللنهب والسلب فقط ولما تمكن الامبراطور هرقل خليفة الامبراطور موريس من التغلب على فوكاس سنة (٦١٠) ب م اخذ يتأهب لرد خسرو عن الامبراطورية الرومانية

الفرس في سوريا

وكان الفرس في ذلك الحين يتقدمون في الامبراطورية وهم ينتقلون من فتح الى فتح ومن نصر الى نصر لخلو البلاد من وسائل الدفاع ولاختلاف ابنائها وانقسامهم على بعضهم وخيانة بعض سكانها كاليهود والسامريين الذين انضموا للفرس واطلعوهم على عورات البلاد

وفي سنة (٦١٤) م دخل الفرس الشام ونهبوها واخذوا اهلها

اسرى وفي السنة التالية تقدموا الى فلسطين وحاصروا القدس وفي سنة (٥١٥ ق . م) افتتحوها وذبحوا اهلها واخذوا الصليب معهم الى بلادهم ثم تقدموا نحو مصر والاناضول بعد ان ضموا سوريا اليهم والفوا منها مقاطعة فارسية

الامبراطور هرقل

وحينئذ نهض الامبراطور هرقل من سباته وتقدم باسطوله حتى خليج الاسكندرونه واخذ يرتب وسائل الدفاع وتمكن في ستة معارك متوالية من انقاذ الامبراطورية ورد الفرس الى ما وراء الفرات واجبر الملك خسرو على رد الصليب وطلب الصلح

ولقد كان على هرقل ان يعمل بعد هذا لما فيه المصلحة العامة فيرتق الفتق ويلم الشعث ويؤلف بين القلوب ويوحد الاراء المذهبية المتفرقة بيد انه لم يفعل من ذلك شيئاً بل زاد الضرائب لان الخزينة كانت فارغة وتداخل في الاختلافات المذهبية فكان ذلك سبباً لنفور السوريين منه ومن سياسته وادارته

الارامية السريانية

اما الاراميون الساكنون في سوريا بعد ان اعتنقوا الديانة المسيحية فقد مالوا الى التلبس باسم السريان وهو الاسم الذي اطلقه عليهم اليونانيون واستنكفوا من استعمال لفظة (ارامين) لما علق بالاذهان من كراهية الوثنية القديمة في هذه اللفظة ولما انتشرت تعاليم نسطور فيما بينهم في اواخر القرن الخامس وكانت يومئذ تتقاسمهم سلطتان او نفوذان الفرس

والروماں اعتنق معظم السريان الشرقيين الخاضعين لدولة فارس العقيدة النسطورية وانضم السريان الغربيون الخاضعون للرومان الى مذهب اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة وصار بين الفريقين اختلاف ديني تبعه اختلاف لغوي فاطلق اسم السريانية على اللهجة السورية والكلدانية على الفرع الشرقي على ان الفرق بين اللهجتين سطحي وهو مقتصر على لفظ بعض الأحرف والحركات وشكل الخط

والخلاصة ان اللغة الارامية السريانية هي التي كانت سائدة في سوريا حين دخلها العرب وهي اللغة التي نازعتها العربية نزاعاً شديداً حتى اقتلعتها وتأصلت مكانها

...

اسئلة

١ — كيف كانت سوريا في عهد بيزانطيه ؟
٢ — صف لنا الحالة العمومية ؟
٣ — ما تعرف عن مدرسة بيروت الحقوقية ؟
٤ — هل كان السوريون راضين عن السياسة الرومانية؟
٥ — كيف كان حال التجارة ؟
٦ - تكلم عن غارات الفرس على سوريا واسبابها ؟
٧ - ما تعرف عن خسرو وفتوحاتهِ؟
٨ = صف لنا انتصارات هرقل ؟
٩ = تكلم عن اللغة الارامية السريانية في سوريا ؟

***

القسم الثاني

سوريا ولبنان بعد الفتح العربي

الفصل التاسع

الفتح العربي سنة ٦٣٤ بعد المسيح

العرب في الجاهلية ، الشعر والعرب ، الخلفاء الراشدون ، فتح العراق وسوريا

العرب في الجاهلية

كان العرب يقيمون في شبه الجزيرة العربية وكانوا قبل الاسلام كما هم اليوم قبائل وعشائر تعيش في بلاد كانت ولا تزال قاحلة ، لا يتجه نظر احد للاستيلاء عليها اذ لم يكن في ذلك الفتح فائدة محسوسة ، وكانت تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة والثمرات القليلة الضئيلة التي تنبت في ارضها وكان جل اعتماد اهلها على التجارة اذ كان البر وسيلة صالحة للنقل ولم يكن العرب تجاراً ولكنهم كانوا حماة للتجارة التي تمر بارضهم من غزو القبائل لها واستيلائهم عليها . وهذه حياة قل ان يستقر صاحبها الى ذويه وقل ان تسمح له بالتفرغ الى مظاهر الحياة الفنانة وقل ان تسمح بقيام المدن والجماعات المتشابكة المصالح القائمة

حياتها العامة على التضامن والتنافس وما يزال هذا شأن الجزيرة الى يومنا هذا فالمدن فيها قليلة والحضارة ضعيفة والقبائل لا تزال تضرب في ارض الجزيرة تبغي رزقاً مجهولاً وماء ضائعاً

العرب قبل الاسلام والشعر

وتاريخ العرب قبل الاسلام غامض مجهول وهو لا يروي عن تاريخهم القديم شيئاً راهناً ورواياته لا تدل على اكثر من ان العرب كانوا اهل بأس ونجدة وحياة معنوية فياضة . كانوا اهل ادب وشعر فنان والحياة في البداوة تقوم عادة على الشعر وانت تستطيع ان تبحث عن فلاسفتهم وحكمائهم وقادتهم وساستهم ومدبري امورهم ؛ ثم تستطيع ان تبحث عن فلسفتهم ودينهم ونظمهم المختلفة وحياة عقولهم وعواطفهم فلا تجدها الا في الشعر . فالشعر اذا هو اول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية لتلك الامة البدوية العربية ؛ وهل كانت تقوم الحضارة الاسلامية التي ظهر فيها من ظهر من العلماء وافذاذ الرجال لو لم توجد البداوة العربية التي سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والاعشى وزهير وغيرهم من امراء الشعر في العصر الجاهلي قبل الاسلام

ولما جاء الاسلام كانت شبه الجزيرة على حالها القديم من البداوة والانقسام وكانت شيعاً وقبائل كل منها ذات كيان مستقل بحاله من نسب وتقاليد ولهجة عربية تختلف قليلاً او كثيراً عن لهجة قريش ولكنها كانت جميعاً ذات حياة معنوية وادبية ممتازة في القوة وكانت هذه الحياة المعنوية السامية لا تتفق مع بعض العقائد والتقاليد التي اكتسبها

العرب من عقائد الشعوب المجاورة كعبادة الاوثان وغيرها لذلك وجدت كلمة الاسلام في بساطتها وقوتها مرعى خصباً ومجالاً واسعاً

الوحدة العربية

ولقد توفي النبي العربي عليه السلام سنة (٦٣٢) بعد ان وحد العرب وجمعهم على كلمة واحدة وانشأ لهم قومية وعنصرية دينية وقام بالامر بعده الخليفة ابو بكر فارسل البعوث الى العراق وسوريا تبغي فتحاً وغزواً . ولما كان الوهن قد تطرق الى فارس والروم عجزت جنودهما عن الثبات امام جيوش القومية الجديدة النشيطة الفتية فسقطتا وانهارت امام القبائل العربية مملكتان من اعظم ممالك التاريخ القديم بأساً ونشاطاً وسلطاناً . وانقضت على بلادهما هذه القبائل المتفرقة توغل فيها غزواً وفتحاً ونصرا

عصر الخلفاء الراشدين

لا جرم ان عصر الخلفاء الراشدين من اروع عصور الاسلام فانت تحس فيه الجلال وانت ترى في خلاله العظمة الاخلاقية وانت تتوسم في رجليه الاولين معنى قد لا تجده في تاريخ كثيرين من ابطال العالم ذلك انك تجد فيه صوراً من الوطنية جديدة والواناً من التضحية وترفع النفس لا تجدها في غيره من العصور

الخليفة ابو بكر ٦٣٢ — ٦٣٥

كان ابو بكر اول الخلفاء الراشدين وكانت بيعته بالخلافة — ٦٣٢

وكانت فاتحة اعماله محاربة العرب من البـدو الذين ارتدوا عن الاسلام وقد منع بعضهم الزكاة فجهز عليهم ابو بكر البعوث وكان عددها اثنى عشر بعثاً فما انفكت عنهم حتى ردَّتهم الى الاسلام والطاعة

فتح العراق وفارس

وكان المثنّى بن حارثة في هذه الفترة وهو من كبار القواد المسلمين يناجز الفرس وعمالهم من العرب في العراق وكان قد اوغل في الانتصار واجمل في الفتح فلما عرف الخليفة بانتصاراته هذه وكانت قد انتهت معارك الردة في جزيرة العرب ورجع خالد بن الوليد فائزاً منتصراً انفذه الى العراق وضم اليه المثنى بن حارثة فنازل خالد الفرس في عدة معارك وفتح الحيرة عاصمة العراق . وكانت معركة السلاسل فغلب هرمز قائد الفرس واستولى على ذخائره وامواله .وجاء الامر بعدها الى خالد بن الوليد ان ينزل الى سوريا فيتزعم قواد العرب المتفرقين فيها مقدمة للمعركة الفاصلة ؛ وكان عمر بن الخطاب قد امّر (ابا عبيد) على جيش العراق وانتصر المسلمون في عهد هذا القائد على جيش من الفرس الا ان قائدهم سقط في معركة الجسر فرد عمر بن الخطاب المثنّى الى قيادة الجند وانفذ اليه الرجال والعتاد وكانت المعارك في العراق وبلاد فارس تسير ببطيء ذلك ان الطرق كادت تكون معدومة وكان تجهيز جيش وارساله الى ساحة القتال يحتاج الى وقت طويل فلما تمكن المثنى في سنة ٦٣٥ من مناجزة الجيش الفارسى الجديد في معركة البويب هزمه وقضى عليه

واهتمت حكومة فارس للأمر واحست بالامبراطورية تتفكك

عراها ان ظل العرب على تقدمهم فانفذ كسرى الى رستم احد رجاله ان يضم اليه ما يتمكن من جمعه من الجند وان ينازل العرب في معركة فاصلة ورأى المثنى استعداد الفرس لمجالدته فنزل بنفسه الى المدينة يفاوض الخليفة عمر بن الخطاب ويطلعه على الحالة العسكرية في ميدان العراق فاظهر عمر اهتماماً فائقاً وانفذ من فوره ما عنده من الجند وعقد القيادة لسعد بن ابي وقاص احد كبار الصحابة . وكان المثنى قد اصيب بجراحات عديدة في معركة الجسر ما زال اثرها ظاهراً فاثرت عليه واضنته فقضى نحبه قبل ان يرى تحقق آماله من سقوط الامبراطورية الفارسية امام الامبراطورية العربية الفتية

ولسنا نتوسع في البحث عن الفتح الفارسي بل حسبنا ان نقول ان سعد بن ابي وقاص نازل رستم القائد الفارسي في معركة القادسية فهزم الجيش وقتل قائده وكان في ذلك القضاء على الامبراطورية الفارسية وقيام العرب في عاصمتها واقتسامهم غنائمها وخيراتها

...

اسئلة

١ – كيف كان العرب في الجاهلية ؟

٢ – ما تأثير الشعر عند العرب ؟

٣ – كيف كان عصر الخلفاء الراشدين ؟

٤ – صف فتوحات العرب الاولى في العراق وفارس ؟

***

الفصل العاشر

الفتح السوري ٦٣٤ – ٦٦٠

معركة اليرموك ، مقتل عمر بن الخطاب ، الخوارج ،
اخر الخلفاء الراشدين

القواد الثلاثة

كان بين العرب والروم ثارات فقد سقط في معركة مؤتة لعهد النبي كثيرون من كبار رجالات المسلمين امام كتيبة من جند الروم وكان الجند الذي اراد النبي ارساله قبل وفاته تحت قيادة اسامة بن زيد بن حارثة ثأراً لقتلى تلك الموقعة فلما تولى الخليفة ابو بكر الامر تقدم ثلاثة من قواد المسلمين ومعهم فصائل صغيرة من الجند العربي الى سوريا وفلسطين وكانوا ثلاثة نفر عمرو بن العاص فاتح مصر ، وزيد بن ابي سفيان ، وشراحبيل وتبعهم ابو عبيدة الجراح وكان لا يزيد عدد الفصائل العربية كلها عن خمسة عشر الف عربي وذلك سنة ٦٣٣ مسيحية

تقدمت احدى هذه الفصائل نحو البحر الميت فتقدم نحوها سرجيوس قائد قيسارية يريد ردها فردته وهزمت رجاله وسقط هو قتيلاً لابدوره وكان قائد هذه الفرقة زيد بن ابي سفيان وبسقوط سرجيوس اصبحت فلسطين تحت رحمة الفاتحين العرب

معركة اليرموك

وكان خالد بن الوليد قد بلغ سوريا قادماً من العراق فضم القواد بعضهم الى بعض وكان رجال الامبراطور قد جمعوا جيشاً وتقدموا نحو اجنادين -- وهو مكان غير معروف اليوم - ولكنه لا يبعد عن دمشق كثيراً فكانت المعركة فيه شديدة عظيمة هلك فيها كثير من الروم وردهم العرب على اعقابهم وهرب قائدهم ثيودور الى حمص وكان هرقل فيها فلما بلغه خبر هذا الانكسار ارتد الى انطاكيه لتجنيد جيش جديد .

وكان الجيش الرومي الجديد ثمانين الفاً نصفه من الروم والنصف الآخر من الارمن ومسيحيي العرب وكان خالد حين اتته اخبار الاستعدادات التي يقوم بها ملك الروم قد تراجع عن بعض البلاد التي افتتحها ودمشق منها وكانت قد سلمت تحت شروط . ولم يلتق الجيشان الا في ٢٣ تموز سنة ٦٣٦ مسيحية في معركة الجابية وغيرها من المعارك البسيطة وذلك جنوبي دمشق ثم كانت معركة الياقوصه او (اليرموك) في ٢٠ اغستوس ٦٣٦ فدارت الدائرة فيها على الروم وكانت الهزيمة هائلة والنصر عظيما اشتركت فيه نساء العرب فكانت في مواطنها وراء الجيش من اكبر عوامل التحميس والتشجيع

أخلى هرقل سوريا بعد المعركة. واخذ العرب يستنزلون المدن السورية واحدة بعد اخرى فسقطت دمشق ثانية بيد القائد العام ابي عبيدة الجراح وجاء الخبر بوفاة الخليفة ابي بكر في معركة اليرموك

وخلافة عمر وصدور امره الى ابي عبيدة الجراح بالقيادة العامة . وكان عمرو بن العاص يحاصر بيت المقدس فرفض اهلوها التسليم الا ان يكون الخليفة نفسه حاضراً وكان الامر كذلك فحضر امير المؤمنين عمر بن الخطاب وتسلم المدينة اما شراحبيل ويزيد فاخذا باسقاط المدن الساحلية

طاعون عمواس

وليس اشد من السنة الثامنة عشر هجرية على المسلمين فقد فشا فيها الطاعون فقضى على كثير من رجال المسلمين وجنودهم بينهم ثلاثة من كبار القواد ابي عبيدة الجراح وشراحبيل ويزيد ابن ابي سفيان

مقتل عمر بن الخطاب

قال احد الرواة من الاعراب شهدت عمر بن الخطاب يوم طعن فما منعني ان اكون في الصف الاول الا هيبته فكنت في الصف الذي يليه فلما اقبل عمر لصلاة الصبح عرض له ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه فطعنه ثلاث طعنات فسمعت عمر يقول « دونكم الرجل فقد قتلني »

عثمان بن عفان

ولم يستخلف عمر احداً وانما عهد الى النفر الذين توفي النبي وهو راضٍ عنهم ان يستخلفوا احدهم فاتفقوا على عثمان بن عفان وكان رجلاً محبوباً من قريش غدا المسلمون في ايامه على ارزاقهم وتوسعوا فيها واقتنوا الدور وبنوا المساكن وكانوا في ايام عمر لا يفعلون ذلك اجلالاً له وتأسياً به

وتوفر المال فى ايام عثمان حتى لقد بيعت الجارية بوزنها وبيع الفرس بعشرة الاف دينار وبيع البعير بالف والنخلة بمثل ذلك ثم انكر الناس في المدينة والامصار على عثمان بن عفان اشياء واموراً منها اختصاصه بني امية بالخيرات والوظائف وغير ذلك فنقموا عليه وحاصروه وقتلوه

الفتنة في الاسلام

وتولى الخلافة بعده علي بن ابي طالب (٦٥٦) وبايعه المسلمون في الامصار والمدن الا دمشق . وكان عاملها معاوية ابن عم عثمان قد اخذ يطالب بدمهِ ويحرض الناس على قتلته فاضطر ان يحاربه وكان بين الجيشين مناوشات لم تأت بنتيجة قاطعة

الخوارج ومقتل علي

وفي ايام علي خرجت طائفة من المسلمين سمّوا بالخوارج على علي ومعاوية وكان شعارها الحكم لله فقاتلهم علي وهزمهم وظلت طائفة صغيرة تحارب خلفاءه من بعده

وفي سنة تسع وثلاثين هجرية حج ناس من الخوارج فلما انقضى الموسم اقام نفر منهم في مكة وقالوا « كان هذا البيت معظماً في الجاهلية جليل الشأن في الاسلام وقد انتهك هؤلاء حرمته (علي ومعاوية) فلوا ان قوماً شروا انفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللذين افسدا في الارض واستحلا حرمة هذا البيت استراحت الامة . واختار الناس لهم اماماً» فقال عبد الرحمن بن ملجمة المرادي « انا اكفيكم امر علي » وقال الحجاج بن عبد الله «وانا اكفيكم معاوية» وقال عمرو بن بكر « والله ما

عمرو بن العاص بدونهما فانا له » فتعاقدوا على ذلك واتفقوا على يوم واحد يكون فيه وقوع القتل

وقدم عبدالرحمن بن ملجمة الكوفة وكتم امره وتزوج امرأة يقال لهاقسطام بنت علقمة وكانت خارجية مثله فلما كان اليوم الذي تواعدوا فيه خرج من البيت وقعد لعلي حتى اتى لصلاة الصبح وذلك صباح كانون الاول (٦٦١) فوثب عليه وقال « الحكم لله لا لك يا علي » وضربه على قرنه بالسيف فقال علي « فزت ورب الكعبة لا يفوتنكم الرجل » فشد الناس عليه فاخذوه ولم يتوفق رفيقاه في قتل معاوية وعمرو بن العاص وكان نصيب الثلاثة المتامرين القتل

ولما قتل علي بن ابي طالب ثار الناس الى الحسين بن علي بالبيعة فلما بايعوه قال لهم تبايعون لي على السمع والطاعة وتحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت فرضوا بذلك وكاتب هو معاوية فخلا به واصطلحا على ان تكون الخلافة للحسن بعد معاوية . فانتقلت بذلك الخلافة او الملك من بني هاشم الى بني امية

• • •

اسئلة

١ — لماذا تقدم العرب الى سوريا ؟

٢ — ما تعرف عن معركة اليرموك ؟

٣ — كيف كان مقتل عمر بن الخطاب ؟

٤ — من هم الخوارج وما هي مبادئهم ؟

٥ — كيف انتقلت الخلافة الي بني امية ؟

الفصل الحادي عشر

سوريا في عهد الامويين ٦٦٠ — ٧٥٠

معاوية ودهائه ، بطانة معاوية ، تأثير السوريين في نجاحه
الدولة الاموية ، دولة عربية لا سورية

معاوية بن ابي سفيان ٦٦٠ — ٦٨٠

استعمل امير المؤمنين عمرُ بن الخطاب معاويةَ بن ابي سفيان على سوريا خلفاً لشقيقه يزيد وكان معاوية ادهى بني امية واشدهم جرأة واكثرهم حزماً واعلمهم بشؤون الادارة والوان السياسة وقد ساعده الحظ فازال من طريقه الكثيرين من رجالات العرب فلما كان مقتل علي ابن ابي طالب تطلع فلم ير من ينازعه الخلافة الا ابناء علي وهم ضعاف في الرجال والاموال وليس لديهم دهاء معاوية ولا حزم بن ابي سفيان

وكانت بطانة معاوية من العرب السوريين من خلّص القوم له واشدهم رغبة في معاونته ذلك لعصبية كانت تتنازعها مع قبائل العراق ورغبة منها في استبقاء قاعدة الملك في الشام وفي ذلك نفع ظاهر وخير كبير . لا جرم ان معاوية قد استعان بالسوريين واستفاد منهم ولكن القول ان دولة بني امية سورية وان للسوريين الفضل الاكبر في تأسيسها وامتداد نفوذها قول مردود لان السوريين لم يكونوا قد افرج عن

روعهم من روعة الفتح ولم يكونوا قد ثابوا الى رشدهم من هول الانقلاب ولم يكن الخلفاء ليلقوا بين ايدى السوريين مفاتيح ملكهم ولا ليجعلوا لهم من الامر شيئاً فان كان ثم امر استفاده الامويون من السوريين فهو في تجهيز بعض الجيوش وفي صناعة المراكب والابحار وأما الرأس المدبر فقد كان دائماً عربياً مضرياً خذ مثلاً لذلك حكام المقاطعات الاسلامية ايام الامويين واستعرض اسماء قواد الجيوش في عهدهم تر انها كانت عربية مضرية لا سورية ارامية

اصلاحات الامويين

لقد عمل الامويون كثيراً من الاصلاحات الادارية فمعاوية أنشأ مصلحة الديوان لضبط الاموال وقيد المدخل والمصرف ووكل القيام بهذا الامر الى ابن سرجون وهو سوري مسيحي ، ونظم البريد دائرة خاصة ، كان الخليفة يرسل بواسطتها اوامره الى عماله في اطراف المملكة ؛ وكانت النقود المتداولة في سوريا رومانية فابدلها عبد الملك بن مروان بنقود اسلامية عربية ، وكان ديوان الخلفاء يكتب باللغة الرومية ، — وهي كما قدمنا من اللغات الرسمية في الشرق القديم — حتى ابدله عبد الملك بالعربية

الصناعات

وكانت الصناعات في عصر الامويين في ايدي السوريين من المسلمين والنصارى فقد كان العرب يأنفون من العمل ويعدونه حطة لهم ، ولا تزال توجد الى اليوم نماذج من الصناعة السورية في البناء

والزخرفة وذلك في مسجد بني امية في الشام والجامع الاقصى في القدس

العلم

اما العلم والتعريب فقد زرعت بذوره في عهد الامويين فقط ولم يثمر الا في العهد العباسي ، واما الشعر فقد كان قائلوه من العرب وكان لهم مذهب جديد فيه غير مذهب الجاهليين ، فقد تركوا حوشي الكلام ورصعوا كلماتهم بضروب جديدة في الوصف والمدح لم تكن معروفة من قبل

العراك بين السريانية والعربية

اما العراك بين السريانية الارامية والعربية لغة الفاتحين فقد كان شديداً وكان بعض ابناء الساحل يتكلم اليونانية ، والظاهر ان سوريا بقيت سريانية بلغتها ودينها وقوميتها في كل العصر الراشدي ومعظم العصر الاموي وانها لم تستعرب الا تدريجاً في اواخر الدولة الاموية . بيد ان غلبة العربية على السريانية لم تتم في وقت واحد في كل انحاء سوريا ، فقد يجوز القول ان فوز العربية على السريانية في المدن والسواحل تم في خلال القرن العاشر والحادي عشر وفي الداخلية في القرن الثالث عشر واما في لبنان فقد تأخر حتى القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر

اسئلة

١ — من هو معاوية بن ابي سفيان ؟

٣ — ما هي الاصلاحات الامويه في سوريا ؟

٤ — تكلم عن الصناعة والعلم في عصر الامويين ؟

٥ = لمن كان النصر في العراك بين السريانية والعربية

الفصل الثاني عشر

سوريا في عهد الامويين ٦٦٠-٧٥٠

السواحل في عهد الامويين — الامويون والمردة — ملوك بني أمية
الحركة العباسية — الهيئة الاجتماعية

السواحل في عهد الامويين

لما ظهرت جنود العرب بدمشق واستخلف ابو عبيدة الجراح يزيد بن ابي سفيان على دمشق سار هذا في جيش صغير من العرب سنة ٦٣٥م الي السواحل السورية وعلى مقدمته اخوه معاوية فافتتح جبيل وصيدا وعرقة وبيروت ، وجلا كثير من اهلها — وكانوا من الروم على الارجح — الي بلاد الروم ، ثم لما غلب الروم على هذه السواحل في اواخر خلافة عمر بن الخطاب واول خلافة عثمان قصدهم معاوية وردهم ، ورمم المدن الساحلية وشحنها بالمقاتلة والجنود

الامويون والمرده

والظاهر ان معاوية خشي على هذه السواحل من بأس الروم فاستدعى قوماً من الفرس يستوطنونها و كانت فينيقية في ايام الخلفاء الامويين منوطة بدمشق وبيروت عاصمتها ، فلما اراد معاوية غزو جزيرة قبرص عمر المراكب في بيروت لهذه الغاية وجهز فيها الجيش لمحاربة الروم . اما

لبنان فلم يتمكن العرب من التغلب على غير سفوحه القريبة من البحر لوعورة مسالكه ولتحصن اللبنانيين في مغاوره ولا سيما بعد ان اوفد اليه ملوك الروم قوماً من جندهم يعرفون بالمردة كانوا في جبال كيليكية وعددهم اثنا عشر الفاً من الجنود وكلوا اليهم امر الدفاع عن لبنان . وقد دوخ هؤلاء الساحل واتعبوا الامويين في اوائل حكمهم ولا سيما حين شغل عبد الملك بن مروان بحروبه مع ابن الزبير فاضطر الى مصالحتهم ومصالحة ملك الروم وادى لهم بعض الاموال وذلك سنة ٧٠ هجرية

وكان هذا لزمن قصير فلما تفرغ عبد الملك من حروبه الداخلية عمد الى مناوأتهم وتمكن من اجلائهم بعد ان حارب الروم في ارضهم في اسيا الصغرى فارسل ملك الروم الى المردة ان يتركوا لبنان الى منازلهم الاولى وعمل الخليفة عبد الملك بعدها على تحصين السواحل بالمقاتلة ورمم المهدوم منها

وكانت الدولة الاموية تحسن الى رعاياها وتجد في تأليف قلوبهم وتتساهل معهم في امور دينهم وعلى الاخص اول حكمها لقلة العرب المتوطنين و كثرة الوطنيين من المسيحيين والموالي

ملوك بني أمية

ملك معاوية عشرين سنة ، وهو اعظم رجل انجبه الامويون ، فهو مؤسس ملكهم وموطد سلطتهم ؛ وكان كثير الحلم واسع الصدر ، فلما توفي تداول العرش الاموي بعده غير واحد من كبار الرجال امثال عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥) وهشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣)

وفي عهده تمكن الفرنج من رد العرب في الاندلس عن التوغل في اوروبا في معركة بواتيه الشهيرة . وعمر بن عبد العزيز وهو اصلح ملوكهم واعدلهم سيرة ، وبلغت الدولة الاموية اوج عزها في ايام الوليد الاول (٧٠٥ – ٧١٥) فقد بلغت حدود الدولة العربيه بلاد تركستان شرقاً واسيا الصغرى غرباً

الحركة العباسية

ودب الضعف في ملوك الامويين الاواخر فاغفلوا النظر في شؤون الاصلاح ومصالح الرعية واستبد بالشؤون نفر من الولاة تعاموا عن الشر قبل وقوعه ، وكان العباسيون قد اخذوا اهبتهم سراً للثورة ، وجمع ابو مسلم الخراساني حوله من والاه من سكان خراسان وغيرهم من العرب واخذ يناجز فلول الامويين في اطراف خراسان حتى غلب مروان الثاني اخر بني امية في معركة الزاب سنة ٧٥٠

واعمل العباسيون السيف في الباقين من بني امية فلم ينج منهم الا القليل اشهرهم الامير عبد الرحمن مؤسس الدولة الاموية في الاندلس

الهيئة الاجتماعية

وكان الناس ايام بنى امية طبقات ثلاثاً اولها العرب ومنهم الزعماء والجنود ولهم الارزاق والغنائم يتقاضونها من بيت المال ، وكان عددهم لا يزيد عن مائتي الف نسمة بين اربعة ملايين من السوريين

وثانيها الذميون وهم غير المسلمين ولم يكن لهم حقوق سياسية ، ولكنهم كانوا يتعاطون التجارة والصرافة وبقية الصناعات

وثالثها العبيد وهم جمهور كبير كانوا يزيدون بتوالي الحروب وكانوا يزاولون الفلاحة والصنائع لحساب مواليهم

وكان الذميون في عيشة راضية أيام بني امية جمعوا الثروات الكبيرة وعاشوا آمنين مطمئنين على ارواحهم ومتاجرهم

الحالة الاقتصادية — الحركة الفكرية

اما الزراعة فكانت زاهرة فى هذا العهد ، وكان الناس ينصرفون الى زراعتهم واراضيهم يستثمرونها بجد واهتمام وكانت سوريا تصدر بعض محصولاتها الى اسيا الصغرى بطريق حلب

اما الحركة الفكرية الادبية فكانت ضعيفة تكاد لا تتلمسها الا في الشعر واشهر شعراء العرب في عهد الامويين : جرير ، والفرزدق ، والاخطل

• • •

اسئلة

١ — من هم المردة ؟

٢ — اذكر ما تعرفه عن ملوك بني امية ؟

٣ — لماذا دب الوهن الى الدولة الاموية ؟

٤ تكلم عن الهيئة الاجتماعية والحالة الاقتصادية والفكرية عهد الامويين ؟

الفصل الثالث عشر

سوريا في عهد العباسيين (٧٥٠ - ٩٧٧)

حوادث لبنان ، الحضارة الاسلامية ، الصناعة في سوريا

العباسيون في سوريا

ولما انهارت الدولة الاموية وانتقلت العاصمة من الشام الى بغداد ، وقام العباسيون بالامر بعدها اصبح العراق مركز الدائرة وقطب الحركة العربية الاسلامية

اهمية سوريا

ولقد ادرك العباسيون ما لثغور الشام من الاهمية والشأن فأمروا بتحصينها . واول من قام بذلك ابو جعفر المنصور واتم العمل بعده المهدي . قال معاوية بن عمرو عن هارون الرشيد وخلفائه « وقد رأينا من اجتهاد امير المؤمنين هارون الرشيد في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد امراً عظيماً اقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الاموال في الثغور والسواحل واشجى الروم وقمعهم ، وامر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وان تشحن بالمقاتلة وذلك في سنة ٨٦١ م

حوادث لبنان

ومما توسل به ابو جعفر المنصور لتثبيت ملكه ولتحصين ثغور الشام

انه ارسل قبيلة من المسلمين لتخلف المردة باحتلال الجبل ، وهي ارومة التنوخيين الذين قدموا الى ضواحي بيروت واحتلوا اواسط لبنان واقاموا بها منذ بدء استيطانهم

ومما لا خلاف فيه ان التنوخيين نزلوا غربي لبنان ٧٣٦ م والغاية من نزولهم صد الروم والوقوف بوجه اهالي الجبل ان رغبوا في الثورة والخروج على الخليفة ، وقد نزل الامير ارسلان احد رؤسائهم محلة رأس البيدر وقطن الباقون جهات بيروت وصيدا وهذه هي القبيلة الاولى من العرب تدخل لبنان ؛ اما الموارنة فقد ظلوا في شمالي الجبل يدبرون امورهم بانفسهم ويدفعون الجزية على ايدي رؤسائهم مخلدين للطاعة والانقياد

واخبار لبنان وفينيقية نزرة قليلة في عهد العباسيين فقد كانت المدن الساحلية تستوقف الانظار دون غيرها في ذلك العهد

سوريا والعباسيون

ولم يسكن السوريون الى العباسيين وحكومتهم ؛ فقد ثاروا غير مرة عليهم ، ولكن مساعيهم اخفقت لاختلافهم وتمزق شيعهم ، وكثيراً ما كانوا يحملون العلم الابيض شعار الامويين لان الاسود كان شعار العباسيين وينصّبون عليهم احد الامويين ، بيد انهم كانوا قليلي الحظ في ثوراتهم هذه ، فكان يرسل العباسيون جندهم عليهم يمزقون شملهم ، ويقضون على ثورتهم

الحضارة الاسلامية في هذا العهد

اما الحضارة الاسلامية فقد بلغت مركزاً سامياً في عهد العباسيين

وكانت بغداد كعبة العلم يقصدها الطلاب والشعراء والكتاب من كل حدب وصوب وقد كثرت الترجمة عن اللاتينية، واشتغل الكثيرون بالعلوم الفلسفية، واشتهر جماعة بالادب والشعر

ومن شعراء العصر العبَّاسي ابو الطيب المتنبي ومروان ابن ابي حفصة وبشار بن برد وابو تمام وابو العلاء المعري، ومن كتابه ابن المقفع والجاحظ، وسهل بن هارون، ومن فلاسفته ابن سينا وغيره

الصناعة والتجارة في سوريا

اما سوريا فقد امست ولاية من الولايات فكان السبق للعراق في الادب والعلم. واستبقت لنفسها التجارة والصناعة فكانوا يصنعون الاقمشة الثمينة والزجاج في حلب ودمشق وصور ويصدرونها، واشتهرت دمشق خصوصاً بصنع الفولاذ وبمحصولات ارضها، من سكر ولوز وزعفران

وظلت سوريا ملتقى الطرق التجارية العالمية فكانت القوافل تقصدها من فرنسا واسبانيا فشمالي افريقيا ومنها تذهب الى بغداد وبلاد فارس والهند

أسئلة

١ – هل كان لسوريا اهمية سياسية في ايام العباسيين ؟
٢ – ماذا تعرف عن السواحل في عهد العباسيين ؟
٣ – من هم التنوخيون ؟
٤ – ما الذي تعرفه عن الحضارة الاسلامية في هذا العهد ؟
٥ – تكلم عن الصناعة والتجارة السورية ؟

الفصل الرابع عشر

تداول الدول والممالك

سوريا في عهد الطولونين والاخشيديين والفاطميين والسلجوقيين

٩٧٧ – ١٠٩٨

الدولة الطولونيه

لما ضعفت الدولة العباسية كانت السواحل من نصيب الدول التي تولت الامر بعدها وكانت الدولة الطولونية المنسوبة الى (طولون التركي) اول الدول التي انتزعت سوريا وتوابعها من ايدي الخلفاء العباسيين . كان طولون التركي احد موالي الخليفة المأمون وكان ذا حظوة لديه ، وخلفه ابنه احمد في حظوته لدى الخلفاء فتولى مصر سنة ٨٦٨ وعز فيها ثم استقل بالسلطة وخافه الخليفة فقلده الشام ايضاً اكتفاء شره ، وورثها عنه ابناؤه من بعده حتى انقرضوا سنة (٩٠٥) م

توالي الدول على سوريا

فعاد الخلفاء العباسيون وارسلوا الى الشام عمالاً يقومون بتدبيرها فلم تطل مدتهم اكثر من ثلاثين سنة اذ قام وال اخر من ولاة دمشق يدعي محمد بن طغج الاخشيدي ، فانشأ الدولة الاخشيدية في دمشق سنة ٩٣٥

ملكت الى سنة (٩٦٩) فخلفتها بالشام الدوله الفاطمية حتى ايام الصليبيين .

الفاطميون في سوريا

والفاطميون ينتسبون الى السيدة فاطمة بنت النبي عليه السلام . ظهروا اولاً في تونس ثم امتدت دولتهم الى مصر فاخضعوها ودخلوا بعدها سوريا فلم تستقر سلطتهم عليها تماماً ولم يدخل في طاعتهم غير سكان المدن

وفي اواخر الدولة الفاطمية ظهرت في سوريا الدولة السلجوقية المعزوة الى سلجوق بن تقاق من امراء الترك فاستولى احد اولاده طغرول على خراسان سنة (١٠٤٠) وزحف على بغداد وسارعنها الى الموصل ففتحها ومات بلا عقب. فافضت السلطة بعده الى الب ارسلان بن داود اخيه وهو الذي اسر رومانوس الرابع ملك الروم في وقعة الكبادوك. وسنة (١٠٧٠) سار الب ارسلان الى حلب وافتتحها وافتتح احد امرائه الرملة وبيت المقدس وحاصر دمشق فاعتاصت عليه وقتل الب ارسلان (١٠٧٣ م) وخلفه ابنه ملكشاه وبعد ثلاث سنوات دخلت دمشق في حوزة السلجوقيين واغتنم ملك مصر الفاطمي حدوث بعض الاختلافات بين الامراء السلجوقيين فساق بعثاً على سوريا واستولى على صور وصيدا وعكا وجبيل فصارت الشواطيء السورية الى ايدي الفاطميين .

ولما توفي السلطان ملكشاه سنة (١٠٩٣) تنازع السلجوقيون بعده السلطة ووقعت حروب شديدة بين الاحزاب المختلفة فاسرعت عوامل

التجزئة في الدولة السلجوقية في سوريا وظلت سواحل فلسطين وسوريا تحت سلطة الفاطميين وانقسم باقي الجهات الى عدة اعمال مستقلة. وفي هذه الاثناء قدم الصليبيون الى البلاد

ومما يذكر في هذه المناسبة ان النصيرية وهم شيعة افترقت عن بقية الشيع الاسماعيلية العلوية سكنت شمالي لبنان اثناء حكم الفاطميين وكذلك الدروز فقد نشأت شيعتهم في هذه الاثناء ايضاً . واول ما ظهرت في وادي التيم من اعمال سوريا ثم امتدت الى الشوف وهي فيها قوية حتى اليوم

سوريا والسواحل في هذا العهد

قال ابن حوقل وهو من جغرافيي العرب في كتابه المسالك والممالك يصف سوريا وبيروت في هذا العهد:

« بيروت على ساحل الروم . . . وبها يرابط اهل دمشق وسائر جندها واليها ينفرون عند استنفارهم ، وليسوا كاهل دمشق في جفاء الاخلاق وغلظة الطباع ، وهي ذات نخيل وقصب سكر وغلات متوفرة وتجارات البحر عليها دائرة ، وسابلتها غير منقطعة ، حصينة خصيبة متينة السور رخيصة الاسعار جيدة الاهل مع منعة فيهم من عدوهم وصلاح في عامة امورهم .

ووصف ايضاً طرابلس فقال انها . فرضة دمشق وانها وافرة الغلات يقيم فيها جند الشام ومنها يخرجون لغزو الروم

وفي سنة ٤٣٨ هجرية تجول في سواحل الشام رحالة فارسي يدعى

(نصري خسرو) فوصف مدن فينيقيه وصفاً جميلاً فقدم اولا بطرابلس قادماً اليها من حلب فوصف حدائقها الغناء ومزارعها من قصب السكر والموز والنخل والنارنج ووصف اسوارها المنيعة ، واسواقها النظيفة ودورها من اربعة طوابق الى ستة ، وكان اهلها حينئذ على مذهب الشيعة ولا يزيدون عن عشرين الفاً وكان فيها معمل لورق الكتابة وكانت طرابلس في ذاك الوقت في حوزة ملوك مصر الفاطميين وقد اعفوها من الضرائب لامانة اهلها معهم في حروبهم مع الروم

ثم مر بالبترون وجبيل فقال عن الاخيرة انها مثلثة الزوايا قاعدتها شاطيء البحر وانها محصنة باسوار عالية غاية في المتانة يحدق بها النخيل وكثير من الاشجار

وقد اشار في طريقه بين بيروت وجبيل الى قناطر واعمدة عظيمة لاشك انها من بناء الرومان درست وذهبت اثارها ، ولما وصل خسرو الى صيدا اعجبه متانة اسوارها ، وكلها من الحجر المنحوت ولها ثلاثة ابواب ووصف حدائقها بالجمال ، ثم تخطى الى ذكر صور وبنائها العجيب على صخر ممتد في البحر واسوارها المحدقة بها ومعظمها في البحر وكانت تأتيها الماء بقناطر من الجبل

اسئلة

١ = كيف قامت الدولة الطولونية ؟

٢ = ما تعرف عن تداول الدول في سوريا ؟

٣ = من هم السلجوقيون ؟

٤ = تكلم عن الحالة في سوريا والسواحل في هذا العهد ؟

الفصل الخامس عشر

سوريا الافرنجية ١٠٩٨ – ١١٤٤

المعاهدات الاولى – فتح اورشليم – المملكة اللاتينية

الافرنج في سوريا

بدأ الافرنج منذ القرن الرابع بعد المسيح بالنزول الى سوريا ، فكان الكثيرون منهم يزورون فلسطين ودمشق ولبنان عهد الرومان ؛ فلما انقضى ذلك العهد وتغلب العرب على البلاد خفت حركة الزيارة ، لما اوجس المسيحيون الافرنج من خوفٍ اذا هم نزلوا الاراضي المقدسة دون اتفاق سابق مع السلطات العربية فيها

المعاهدات الاولى

ذلك هو السبب الاول الذي دعا الى عقد المعاهدات في القرن التاسع بين الخلفاء العباسيين وملوك الفرنجة ، وقد رغب الخليفة هارون الرشيد في محالفة شارلمان ، اذ بلغه انه يحارب الامويين في الاندلس ، وان بينه وبين ملك الروم منافسة وعداوة وكان ذلك رغبة منه في الاستفادة من هذا التنازع بين امراء الفرنجة . ولما استلم شارلمان مفاتيح كنيسة القبر المقدس من البطريرك الاورشليمي عمل على استحصال حق الحماية على الاماكن المقدسة واجارة مسيحيي الشرق ، فزادت بعد ذلك وفود الزائرين الحجاج ، وانشئت المؤسسات اللاتينية في اورشليم اسعافاً للزوار

ولمسيحي الشرق ، وعينت لها الاوقاف

فلما تولى الخلافة الحاكم بامر الله الفاطمي (٩٩٦ – ١٠٢٠) هدم كنيسة القبر المقدس وضيق على المسيحيين واضطهدهم اضطهاداً شديداً فاستنصروا البابا في رومية وهذا استصرخ ملوك اوروبة وقادة فرسانها فلباه منهم عدد غفير زحفوا على الشرق بطريق القسطنطينية

فتح اورشليم

ولقد انتصر الصليبيون في حملتهم الاولى انتصارين باهرين مكّناهم من الاستيلاء على البلاد اولهما فتح انطاكية في ٣ حزيران سنة ١٠٩٨م بعد حصار دام ثمانية اشهر ، وثانيهما فتح بيت المقدس في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩

ودخل (غدفري دي بوليون) زعيم الصليبيين القدس الشريف ، وزار قبر السيد المسيح حافياً ولقب نفسه بلقب (بارون القبر المقدس)

المملكة اللاتينية

وبعد فتح اورشليم سقطت عسقلان ثم مدن الساحل كلها كعكا وطرابلس وبيروت وصور وصيدا (١١٠٠ – ١١٢٤) وزحف الافرنج مرتين على دمشق فامتنعت عليهم لحصانة اسوارها فهادنوها على ان تؤدي لهم الجزية

وبلغت المملكة اللاتينية غاية امتدادها نحو سنة ١١٤٤ فكانت مؤلفة من اربع اقطاعات واسعة او امارات خاضعة للملك بموجب عهد بينه وبين اصحابها وهي

١ – امارة الرها شرقاً – كانت تمتد على شاطيء الفرات

٢ – امارة انطاكية شمالاً – وكانت تبسط حمايتها على كليكيا

٣ – امارة طرابلس من قلعة المرقب الى نهر الكلب

٤ – مملكة اورشليم وكانت تشمل فلسطين كلها

ولم يملك الصليبيون المدن الداخلية الكبرى كحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق فاكتفوا بالجزية يأخذونها

وابتنى الصليبيون قلاعاً حصينة في الجبال وعلى سواحل البحر، وفي الداخلية حماية للبلاد من غارات المسلمين وتأميناً للطرق، منها حصن الاكراد وبرج صافيتا ومرقب وعرقة وقلعة الشقيف في جنوبي لبنان

...

اسئلة

١ = كيف بدأ الافرنج بالنزول لسوريا ؟

٢ = ما تعرف عن المعاهدات الاولى ؟

٣ = ما اسباب الحروب الصليبية ؟

٤ = اذكر انتصارات الصليبيين الاولى وتأثيرها

٥ = صف المملكة الاسلامية في سوريا

***

الفصل السادس عشر

انحطاط المملكة الافرنجية في سوريا

١١٤٤ – ١٢٩١

انحطاط المملكة ، صلاح الدين الايوبي ، معركة حطين ، الافرنج في سوريا

انحطاط المملكة

ولقد ظهر الانحطاط في مملكة الفرنج بسرعة ، وسبب ذلك ابتعادهم عن بلادهم ووجودهم في اقطار هم اغراب عنها واهلها اعداء لهم ، وعدم اتحاد كلمتهم فاغتنم الفرصة بعض امراء المسلمين المستقلين كالامير زنكي امير الموصل ؛ وهاجم مدينة الرها فافتتحها (١١٤٤) ، فتحركت لهذا الخبر الحملة الصليبية الثانية ولكنها لم تأتي بعمل يذكر

الدولة الفاطمية وصلاح الدين

وكانت الدولة الفاطمية في هذا العهد آخذة بالانحطاط والتلاشي فطمع فيها نور الدين سلطان دمشق ، واوفد الى القاهرة شيركوه الكردي فاستوزره الفاطميون واستبد بالاحكام دونهم ، وتصدر الوزارة بعده ابن اخيه صلاح الدين الايوبي ، وصار الامر اليه بعد وفاة اخر الفاطميين (١١٧١) فانشأ الدولة الايوبية ، ولما توفي السلطان نور الدين صاحب دمشق ضم صلاح الدين دمشق اليه وسار لمحاربة الصليبيين فكسرهم كسرة شنيعة في معركة (حطين) بين الناصرة وطبرية في ٤ تموز سنة (١١٨٧)

ثم ضرب الحصار على اورشليم ففتحها صلحاً في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ ، ثم استولى على سائر المدن الفلسطينية السورية ولم يمتنع عليه الا انطاكيه وطرابلس وصور

انتهاء الدولة الافرنجية

جند الصليبيون حملة ثالثة ، فحال نزاعهم دون نجاحهم ، وحالفوا المغول فلم تجدهم هذه المحالفات نفعاً ، فقد حمل الملك الظاهر بيبرس [١] في وقعة عين جالوت في مرج بني عامر قرب بيسان ايلول (١٢٦٠) على الحلفاء فسحقهم

وقام ابنه قلاون [٢] فواقع المغول في سهول حمص وكان قد انضم اليهم ثلاثون الفاً من الفرنج والارمن وهزمهم بمساعدة العرب

وخلفه ابنه الاشرف [٣] بعده فضرب الحصار على عكا في ١٢ نيسان (١٢٩١) فاستبسل الصليبيون في الدفاع عنها ولكنها افتتحت عنوة

واستولى الملك الاشرف بعد ذلك على سائر المدن التي كانت في يد الفرنج اي صور وحيفا وصيدا وبيروت وطرطوس وغيرها فخرجت سوريا كلها داخلها وساحلها من يد الصليبيين فكانت مدة احتلالهم للبلاد من حين فتحهم انطاكيه سنة ١٠٩٨ حتى خروجهم من عكا سنة ١٢٩١ مئة وثلاثاً وتسعين سنة

---

(١) الملك الظاهر بيبرس من اشهر ملوك المماليك الذين ظهروا في مصر وسيأتي خبرهم في الفصل القادم وقد حكم من ١٢٦٠–١٢٧٧

(٢) ١٢٧٨–١٢٩٠ (٣) – ١٢٩٠–١٢٩٣

سوريا في عهد الافرنج

كانت مملكة الافرنج مؤلفة من اقطاعات مقيدة فيها سيادة الممالك بسلطة طبقات الامة الثلاث : الاكليروس والاشراف والاعيان . وكان من نتائج الحملات الصليبية ان تعرف الشرق على عوائد الغرب ، والغرب على عوائد الشرق وزادت التجارة بين مدن الغرب مثل بيزه وجنوى ، والبندقية ، ومرسيليا ، ومدن سوريا كحلب ودمشق ، والمدن الساحلية وكان التجار الاوربيون يؤمون هذه البلاد طالبين الآنية الخزفية الثمينة والزجاج المتقن الصنعة ، والعطور ، وسكر القصب ، وكثر البناء والعمار في سوريا ، واخذ الافرنج يقلدون العرب في بنائهم وملابسهم وعاداتهم (١)

...

اسئلة

١ — عدد الاسباب التي دعت الى انحطاط المملكة الصليبية ؟
٢ — اذكر ما تعرفه عن الدولة الفاطمية وصلاح الدين الايوبي ؟
٣— اذكر حملات الصليبيين الاخيرة على الملوك المسلمين ؟
٤ — ما تعرف عن سوريا في عهد الافرنج ؟

---

(١) وقد ضرب الامراء الافرنج الذين حكموا سواحل لبنان في هذا العهد النقود باسمهم ، وكانت الكتابة عليها غالباً باللاتينية ومنها ما هو بالفرنسية والعربية ضربها امراء عكا وصور وبيروت وطرابلس بالحرف الكوفي على مثيل النقود الاسلامية مع رموز نصرانية وآيات كتابية

الفصل السابع عشر

سوريا في عهد المماليك

(١٢٥٢ — ١٥١٦)

اصل المماليك ، الفرنجة والسواحل ، تحصين السواحل

اصل المماليك

ولما اضمحلت سلطة الصليبيين في المشرق صار لبنان وسواحله الى حكم دولة المماليك المصريين المتولين على الشام وهؤلاء المماليك خلفوا الدولة الايوبية وانما دعوا بالمماليك لانهم كانوا في الاصل من رقيق الجركس والتركمان باعهم النخاسون في مصر فدخلوا في خدمة ملوكها ثم نما عددهم وزاد نفوذهم حتى صار الامر الى يدهم وتولوا السلطة على مصر والشام بعد الايوبيين خلفاء العباسيين عليها

الفرنجة والسواحل

وكان اول ما سعى اليه هؤلاء الملوك اخراج الصليبيين من المدن الساحلية ، ولما تم لهم ذلك عملوا على تحصين سواحل الشام مخافة ان يعودوا الى مهاجمتها كما فعلوا من قبل لا سيما وانهم كانوا لم يبرحوا جزيرة قبرس ورودس يرقبون منها عن كثب سواحل الشام ، وكانت سفنهم كثيراً ما ترد السواحل مشحونة بالمقاتلة فتردها الحاميات على اعقابها .

وفي سنة ١٣٠٤ توجه اسطول من مراكبهم الى صيدا فاخذوها وقتلوا جماعة من اهلها واسروا اخرى ونهبوا شيئاً كثيراً . وفي هذا الوقت ايضاً استولى بعض الفدائيين الهيكليين على جزيرة ارواد فملكوها مدة ثم اضطروا الى تسليمها

وعادت سفن الافرنج الجنوية سنة ١٣٣٨ فنزلوا بيروت واخذوا الاعلام السلطانية وقتلوا جماعة من المسلمين ثم حضروا ايضاً سنة (١٣٨٨) فاخذوا صيدا وهموا بفتح بيروت فلم يفلحوا فعادوا ادراجهم الى قبرس، وبعد ايام رجعوا الى بيروت فحاربوا اهلها ونزلوا ينهبونها ولكن المسلمين تضافروا عليهم وأجلوهم

تحصين السواحل

فهذه الحملات كلها أظهرت لملوك مصر ونوابهم في الشام حاجتهم الى تحصين السواحل وحراستها من الاعداء . فرمموا الاسوار واقاموا الاستحكامات عليها فكف الافرنج عن غزواتهم بل اخذت الدول الاوروبية تسعى في عقد معاهدات تجارية مع الشرق لاسيما مصر وسواحل الشام بعد ما اختبروا غنى البلاد بضروب الخيرات واصناف المتاجر ولنا على ذلك شواهد في الكتابات الرسمية والعهود الدولية التي نشرت في الازمنة الاخيرة وخصوصاً بين سلاطين المماليك وحكام البندقية وجنوى واهل بيزه وتجار قبرس ومرسيليا وترويجاً لهذه المعاملات التجارية اقيمت منذ ذلك العهد القنصليات، وقد سبقت البندقية جميع الدول في ذلك فكان لها منذ ايام الصليبيين بموجب معاهدة تاريخها ١١٢٣ قناصل في صور

وجبيل وانطاكية وكان للقنصل مجلس شوري من اهل ملته ، وقد ثبت هؤلاء القناصل في مهمتهم بعد الصليبيين ، ونالوا انعامات خاصة من امراء البلاد فابتنوا لهم فنادق وتعاملوا مع الوطنيين بنقودهم فراجت كثيراً وسر بها الناس

لبنان واخباره

وليس للبنان وسواحله ما يستحق الذكر في زمن المماليك المصريين الا انهم جعلوا لهم نواباً في المدن الساحلية كعكا وصيد وطرابلس وكان مرجعهم الى نائب دمشق الذي كان فى يده الحل والعقد وفي هذا العهد صارت الشهرة لبعض الاسر من الامراء وقد سبق ذكر المعنيين منهم والشهابيين وعرف اذ ذاك آل عساف وهم من التركمان

اما التنوخيون فانهم مافتئوا بعد الصليبيين في ترقٍّ ونجاح وجعلت بيروت في عهدتهم للمدافعة عنها حتى ساحل الدامور ؛ وقد بلغ آل تنوخ في هذا العهد اوج عزهم ونبغ فيهم كثير من رجال السيف ، وقد ثبتوا في امارتهم على لبنان الغربي الى ما بعد الفتح التركي العثماني فكسفت شمس الامارة التنوخية ، وسطع نجم المعنيين بعد خمولهم

نظام سوريا في عهد المماليك

ولقد قسم المماليك سوريا الى ست ولايات دعوها نيابات وهي دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك ، واقاموا عليها نواباً من طرفهم .

لبنان ونظامه

اما لبنان فكان نظامه خاصاً به ، فكان الدروز يسكنون اواسطه

الى المقاطعات الجنوبية وكان الموارنة يسكنون جهة جبيل حتى الارز، وعلى شمالهم النصيرية من العلويين

حملة كسروان

وكان اهل الشيعة من نصيرية ومتاولة ودروز في نزاع متواصل يحاربون المسلمين السنيين، فسير المماليك عليهم الحملة الكسروانية (١٣٠٥) فزحف نواب دمشق وطرابلس وصفد بخمسين الف جندي فاتلفوا الكروم وخربوا المساكن وقتلوا اكثر العصاة؛ وحل المسيحيون محلهم فكان لهم التفوق في جهات كسروان

...

اسئلة

١ – ما اصل المماليك ؟
٢ – ما كان مصير السواحل بعد خروج الصليبيين ؟
٣ – اذكر تأثير تحصين السواحل على الافرنج ؟
٤ – ما اخبار لبنان في هذا العهد ؟
٥ – كيف كان نظام سوريا ولبنان في عهد المماليك ؟
٦ – اذكر ما تعرفه عن حملة كسروان؟

***

الفصل الثامن عشر

سوريا في عهد المماليك
١٢٥٢ – ١٥١٦

المماليك في الداخلية ، الامير تنكيز ، تيمورلنك في سوريا ،
العصر الادبي الذهبي

المماليك في الداخلية

كان حكم المماليك في سوريا شديداً قاسياً مملوءاً بالفوضى والاضطرابات فقد كان يحدث احياناً ان يتناوب كرسي الملك اربعة او خمسة من الملوك في سنة واحدة ، وليس ابعث على الفساد من مثل هذا الحال في بلاط تملكه الترف ودب اليه الفساد والشقاق ، وكانت سوريا مجزأة بعضها على بعض الى امارات صغيرة ؛ وكان نائب ملك مصر يقيم في دمشق ويسمى النائب وكان ملوك مصر يخشون ان تحدّث النواب نفوسهم بالثورة فكانوا لا يتركونهم في امارتهم الا زمناً قصيراً ، وقد غالى بعضهم فاخذ يعين النائب لشهر واحد فقط

الامير تنكيز

وكان الامير تنكيز اطولهم عهداً واشهرهم حكماً (١٣١٢ – ١٣٤٠) عمل على احياء الزراعة وتعزيز الاعمال الاصلاحية ، وكانت له اياد بيضاء على البلاد فزاد في عمارتها وتحصينها وتنعم السوريون في ايامه بوفر العيش

وانصرفوا الى تجارتهم وشؤونهم غير انه عزل واعتقل في سجن الاسكندرية لسبب ظلَّ مجهولاً

وتتابع بعده على نيابة الشام اشخاص اعمتهم المطامع فعملوا على ما فيه منفعتهم وربحهم ، فعمت البلاد بالفوضى ورأى قازان [1] ان الفرصة سانحة فتقدم الى سوريا (١٢٩٩) وانزل بالمماليك على مقربة من حمص خسارة عظيمة وردهم على اعقابهم ودخل دمشق ظافراً فاتحاً ولكنه اضطر للرجوع الى بلاد فارس حالاً لما اشتعلت الثورة فيها ، فاغتنم المماليك الفرصة واستعادوا سوريا ، وتمكن الملك الناصر سنة ١٣٠٣ من رد قازان على اعقابه لما همَّ بالعودة الى سوريا ثانية في معركة (مرج صفر)

تيمورلنك في سوريا

وفي سنة (١٤٠١) تقدم تيمورلنك الطاغية التتري المشهور الى سوريا فافتتح حلب وترك حمص دون ان يمسها بسوء احتراماً لخالد بن الوليد قائد العرب الاكبر ، ولما وصل الى ضاحية الشام ارسل اهلها منهم من يفاوضه في الصلح فرضي بذلك وقضى لنفسه غرامة قدرها مليون دينار ، ولكنه لما دخل المدينة حنث بالوعد واخذ يجمع ما تصل اليه يده من المال ، ثم حمل الصناعين والنقاشين وارباب الحرف المشهورين من السوريين الى عاصمته سمرقند فاضعف بعمله هذا الصناعة السورية

---

(١) كان المغول من الد اعداء المماليك في سوريا لثارات ومعارك بين الفريقين ، فلما فسد حكم المماليك في سوريا اغتنم قازان احد ملوك المغول هذه الفرصة لافتتاح البلاد ، وضرب المماليك ضربة قاضية .

وافقرها ، وكانت حملته هذه ضربة قاضية على الصناعات والفنون في سوريا

العصر الادبي الذهبي

وان من اغرب مظاهر الحياة في هذا الزمن المضطرب بشؤونه السياسية وحوادثه الحربية رواج صناعة الادب والعلم ولعل سبب ذلك نزوح رجال العلم الى سوريا ومصر بعد سقوط بغداد

واشتهر في هذا العصر الكثيرون من اصحاب التلخيصات والمجموعات والتواريخ العامة ، امثال ابي الفداء سلطان حماه وصاحب كتاب التاريخ المشهور باسمه (توفي سنة ١٣٣١) وابن ابي اصيبعه الذي جمع تاريخ الاطباء ، وابن نباته (توفي ١٣٦٦) والعمرى صاحب المجاميع توفي سنة (١٣٤٨) . والدمشقي الجغرافي ، وصالح بن يحيي التنوخي مؤلف تاريخ بيروت

اما الشعر فلم ينبغ فيه من يستحق الذكر وكانت اللغة العربية تنازع السريانية نزاعاً شديداً حتي تغلبت عليها واقتلعتها من البلاد

...

اسئلة

١ – كيف كان حكم المماليك في الداخلية؟

٢ – ماتعرف عن الامير تنكيز ؟

٣ – ماتعرف عن تيمورلنك واعماله في سوريا ؟

٤ – لماذا ازهر العلم والادب في هذه الاثناء ؟

القسم الثالث

سوريا بعد الفتح العثماني

الفصل التاسع عشر

سوريا في عهد العثمانيين

١٥١٦ – ١٩١٨

الترك في سوريا ، السلطان سليم ولبنان ، تنظيم سوريا ، ثورة الغزالي

الترك في سوريا

ليس يخطيء الناظر الحدس ، وهو ينظر الى تقدم الدولة التركية وتبسطها في السلطان ، ومنعتها قوة وجنداً ان يقول بانها غالبة سوريا على امرها ، فقد كانت سوريا منذ اول عهدها بالحضارة طعمة سائغة لكل دولة قوية تقوم بجوارها في الشرق القديم . ولما فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية سنة – ١٤٣٥ – ادرك ما لسوريا من الاهمية فهم بفتحها لولا ان عاجلته المنية فأتم الامر بعده السلطان سليم الاول ، بعد ان توسم في هذه البلاد الانقسام والقي اليه ما نزل بامرائها من الوهن والضعف فتقدم الى سوريا ودخلها من جهة عينتاب واستظهر سنة ١٥١٦ في وقعة مرج

دابق شمالي حلب على الغوري ملك مصر وقتله ، ودخل على اثر الموقعة حلب وحماة وحمص منتصراً فاتحاً ونزل دمشق ظافراً في السنة نفسها ايضاً .

السلطان سليم ولبنان

ولم يدخل السلطان سليم لبنان ولم يرهقه من امره عسراً بل كتب الى امرائه يؤمنهم ويدعوهم اليه ، وكانوا قد توافدوا عليه في دمشق يعرضون خضوعهم وطاعتهم

وقد روى الدويهي ان الامراء الذين وفدوا على السلطان سليم ومثلوا بين يديه هم الامير قرقماز المعني والامير جمال الدين اليمني والامير عساف التركماني وغيرهم

اما امراء الغرب التنوخيون فلم يفدوا على السلطان الفاتح لانهم كانوا من محالفي المماليك الجراكسة فتحذروا منه ، وقد ثبَّت السلطان هؤلاء الامراء في بلادهم وفرض عليهم جزية صغيرة

وهكذا ظل الحال اقطاعياً في الجبل وكانت الاقطاعات منقسمة الى خطط صغيرة يدير شؤونها امير او مقدّم او شيخ وما زال الامراء الذين توالوا على ولاية الجبل ينتخبهم ذوو الاقطاعات عند انقراض الاسرة الاميرية

تنظيم الادارة في سوريا

ولما عاد السلطان سليم من مصر بعد ان فتحها وضمها الى الامبراطورية العثمانية اخذ يعمل على تنظيم الادارة في سوريا ، فاقام عليها جماعة من اخصائه وعين الغزالي وهو من المماليك حاكما على دمشق مكافأةً له

على خدماته للترك في تسهيل الفتح السوري لهم ولما عاد السلطان من حلب الى الاستانة ثار احد الزعماء العرب من البدو فتمكن الغزالي من اخماد الثورة وكبر بعدها شأنه، وعظم امره.

ثورة الغزالي

ثم حدثته نفسه بالاستقلال في سوريا وكان داهية حاذقا حكم البلاد بيد من حديد ورأى في المماليك المصريين انصاراً ومساعدين فجمع حوله منهم اثنى عشر الف جندي ولما توفى السلطان سليم الاول خلع العذار ودعا الى الثورة ونادى بنفسه سلطاناً باسم الملك الاشرف في جامع بني امية في الشام

القضاء على الثورة

بيد ان السلطان سليمان ارسل فرهاد باشا مع فرقة من الجند لرده ومحق ثورته فالتقى الجيشان في قرية القابون على مقربة من دمشق فغلب الترك الغزالي وهلك الغزالي في المعركة وذلك سنة – ١٥٢١ – وكان من اثر هذه الثورة في البلاد ان اخرج الترك من الادارة في سوريا جميع الموظفين المماليك وعينوا بدلاً منهم موظفين من الترك، وكان لفرهاد باشا نيابة طرابلس وهو موقع مهم نظراً لقربه من البحر وجبال النصيرية ولبنان وداخلية البلاد

تقسيم سوريا

وقسمت سوريا الى ثلاثة اقسام او ثلاث ولايات يحكمها ثلاثة باشاوات الشام وحلب وطرابلس وكان الباشاوات يتداولون بسرعة على

حكم الولايات السورية المذكورة ؛ وهو مازاد البلاد انغماساً في الفوضى والانحلال .

...

اسئلة

١ – لماذا تقدم الاتراك الى سوريا ؟
٢ – من فتح سوريا من سلاطين الاتراك وكيف كان ذلك ؟
٣ – هل دخل الفاتح لبنان وما هي اعماله فيه ؟
٤ – من هو الغزالي وما شأنه في سوريا ؟
٥ – كيف قسمت سوريا عهد الترك ؟

***

الفصل العشرون

سوريا ولبنان في القرن السادس عشر

١٦٠٠ م

سياسة العثمانيين في سوريا ، المناصب بالمزاد ، السلاطين الترك لبنان في القرن السادس عشر ، نكبة على لبنان

سياسة العثمانيين في سوريا

بقي ارباب المقاطعات في الدولة العثمانية كما كانوا في دولة المماليك يضمنون الخراج مقابل اموال يتعهدون بها ثم يظلمون الناس في تحصيل اضعافها مثل امير عرب الشام مدلج بن ظاهر ، وكانت منازل قومه في

سليميه وغيرها والامير فخر الدين المعني الاول حاكم الشوف في جبل لبنان والامير جمال الدين الارسلاني حاكم الغرب في الجبل المذكور، وبني شهاب في وادي التيم، وبني الحرفوش في بعلبك وغيرهم وكلهم اشبه بامراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام من الباشاوات الترك. واحسنهم حظاً من كان على صلات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله، واذا غضب الوالي على الامير المتغلب ارسل عليه جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة (٩٣٠) هجرية مع امير الشوف فيخرب العسكر قراه، ويستصفي امواله ويأسر اهله ورجاله ويسبي نساءه؛ فعلوا ذلك مرات في لبنان والبقاع وبعلبك ووادي التيم وغيرها وينشأ هذا الغضب من تأخرهم عن دفع الخراج، اما المظالم التي تنزل بالناس فحدث عنها ولا حرج

المناصب بالمزاد

وكان من قواعد الحكومة العثمانية اذا فتحت قطراً ان توسد المناصب الكبرى للترك والصغرى لاهل البلاد ثم تترك القطر وشأنه يتحكم فيه الوالي كما يشاء ولما كانت المناصب تباع بالمزاد في الاستانة كان اكثر الولاة من الساقطي الاخلاق اصحاب الموبقات

السلاطين الترك

ولقد كان السلاطين الترك في هذا الوقت مشغولين بفتوحاتهم وكانوا قلما يهتمون لهذا القطر الصغير بجانب امبراطوريتهم الضخمة، ذلك انهم كانوا لا يتطلبون اكثر من ان تقام الخطبة باسمهم وان يدفع لهم

الخراج في وقته وكان سلطان الترك في هذه الفترة سليمان القانوني الذي حكم ٤٨ سنة وحارب اثنتي عشرة مرة كان فيها مظفراً منصوراً ، ولكنه كان بطاشاً فاتكاً ثار في ايامه اهل حلب ، وقتلوا القاضي والمفتي فصدرت ارادته بقتل جميع اهل حلب لولا ان كان فى الصدارة رجل عاقل اسمه ابراهيم باشا تمكن من الغاء هذا القرار واكتفى بقتل زعماء الفتنة

حملة على الدروز

ومن الاحداث في الشام ان والي دمشق اياس باشا جهز سنة ٩٣٠هـ حملة لقتال الدروز في الشوف فانتصر عليهم واحرق قرية الباروك وثلاثاً واربعين قرية . وارسل الى دمشق اربعة احمال من رؤوسهم وكانت تكثر الدسائس في هذا الحين في لبنان بين بني الحرفوش امراء بعلبك وآل سيفا حكام طرابلس

لبنان في القرن السادس عشر

وكان الدروز في القرن السادس عشر يسكنون غربي لبنان وفي وادي التيم ، وكان يتولى امرهم بضع عشائر اميرية اقدمها آل تنوخ وكان نجم سعدهم قد مال الى الافول بينما نجم المعنيين القاطنين في الشوف اخذ في الظهور والاشراق ، وكان سؤددهم يزداد يوماً فيوماً فسادوا الشوف واصبحت كلمتهم نافذة وسيطرتهم عظيمة وخصوصاً ايام الامير فخر الدين المعني الاول الذي استأثر بالسلطة العليا المطلقة في الطائفة الدرزية ، وكان للمعنيين حلفاء منذ القرن الثاني المسيحي مقيمين بحاصبيا وراشيا وما يجاورهما في وادي التيم وهم الامراء الشهابيون ، وكانت الصلة بينهما

دينية سياسية ، وكان الدروز في هذه الجهات معززين مكرمين .

وكان يتنازع امارة طرابلس آل سيفا وبنو شعيب وكلتاهاتين العائلتين من الاكراد وما زالتا كذلك حتى تغلب آل سيفا اواخر القرن السادس عشر وفاز احدهم بامر الولاية على طرابلس مع لقب باشا وكان التنوخيون في لبنان المتوسط منقسمين الى حزبين قيسي ويمني

وتولى بنو الحرفوش شؤون المتاولة في البقاع

واحتل النصيرية شمالي عكار وهي بلادهم الى اليوم .

وكان الامر في شمالي لبنان لبني عساف اصحاب غزير وجبيل وكانوا من التركمان اقيموا على حراسة كسروان ولكنهم انقرضوا في اواخر القرن السادس عشر وتغلب عليهم بنو سيفا امراء طرابلس

نكبة على لبنان

ومما يذكر ان اللبنانيين مابرحوا حتى اواخر القرن السادس عشر آمنين مطمئنين في حالتهم التي كانوا عليها مع انقسامهم الى حزبين قيسي ويمني وابتلائهم بخصومات واختلافات محلية الى ان فاجئتهم سنة ١٥٨٥ نكبة كدرت صفو عيشهم وشوشت احوالهم وهي انه بينما كانت شرذمة من الانكشارية سائرة قرب عكار باموال ضرائب مصر وسوريا الى الاستانة وثب عليها اللصوص وسلبوها فوجهت التهمة حينئذ على بعض امراء لبنان عموماً وعلى امراء الدروز خصوصاً فانتهزت الدولة الفرصة لاظهار بطشها في الجبل وتولى ابراهيم باشا عامل مصر تنفيذ هذه البطشة فاطلق اليد فيها بشدة وكان اذ ذاك حاكماً كبير الامراء الامير قرقماز ابن

الامير فخر الدين المعني الاول فلم يلبث في وجه ابراهيم باشا وتوارى مختبئاً في قلعة شقيف طيرون وهناك مات غماً. اما الامراء التنوخيون فقد سار بهم قائد الحملة الى الاستانة حيث برئت ساحتهم واعيدوا مقررين على اماراتهم

أسئلة

١ – ما تعرف عن سياسة الترك العثمانية في سوريا في القرن السادس عشر ؟

٢ – كيف كانت احوال سوريا في هذا العهد ؟

٣ – فسر عدم اهتمام الترك بشؤون سوريا ؟

٥ – تكلم عن المناصب وكيف كان توسيدها الى الطلاب ؟

***

الفصل الحادي والعشرون

سوريا ولبنان في القرن السادس عشر والسابع عشر

١٦٠٠ – ١٧٠٠

الامير فخر الدين المعني ، هربه وعودته ، اعماله واصلاحاته التجارة والزراعة في ايامه

لبنان والامير فخر الدين الثاني ١٥٨٤–١٦٣٥

لما بلغ فخر الدين الثاني [1] المعنى اشده القى اليه خاله مقاليد الامارة

(١) ولد فخر الدين الثاني سنة ١٥٧٢ ، ولما مات ابوه قرقماز كفله آل الخازن في كسروان ، فعرف لهم جميلهم بعد مااسترد امارته في الشوف ، واتخذ احد افراد اسرتهم ابا نادر الخازن وكيلا له

على الشوف وكان قد تدرب على فنون السياسة والوان الحياة فاخذ يعمل من سنة ١٥٩٨ – ١٦١١ على توسيع نطاق امارته فضم اليها قسماً من املاك يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس ؛ ثم استولى على اراضي امراء البقاع الحرفوشيين ، ورأت الدولة العثمانية توسعه فاوجست شراً ولكن تركته وشأنه يقاتل بقية الامراء العتاة رغبة منها في اضعافهم جميعاً فبسط سيادته على كسروان والمدن الساحلية والاقاليم الممتدة الى صفد وعجلون وبانياس وكان لبيروت وصيدا النصيب الاوفر من اصلاحاته

ولقد عنى بامر الجندية كثيراً فرتب لنفسه جيشاً كبيراً عدده ثلاثون الفاً ، وأنشأ على طول الحدود استحكامات وقلاع وانشأ مثل ذلك في المدن الواقعة على الحدد (كبانياس) (وشقيف) (وطيرون) وغيرها

هرب الامير فخر الدين

ولم تطل مدة تبسطه في السطوة والسلطة حتى اتجه للعثمانيين عليه شبهات وريب فتغيرت النية عليه ، وكان ان تعين سنة ١٦٠٩ لولاية الشام حافظ باشا حاكما وكان ذا حزم وعزم ، فتولى بنفسه قيادة العساكر الاناضولية لمحاربته . فلما عرف الامير فخر الدين بذلك ورأى انصراف انصاره عنه ، ركب البحر الى ايطاليا سنة ١٦١٣ بعد ان عهد بالامارة الى ابنه علي ، ونزل في ايطاليا في قصر اصدقائه (المديشيش) اصحاب توسكانا بالاحتفال والاحتفاء . وعلم حافظ باشا بسفره على حين فجاة فأسقط في يده وتمكنت الاميرة نسب زوجة الامير فخر الدين من ارضاء الباشا بالمال كي يغض الطرف عن الامارة فلا يتقدم اليها باذى او شر

عودته

ولما عاد الامير فخر الدين من سفرته هذه سنة ١٦١٨ اخذ يجدد صولته ويحسن شؤونه وكان قد تعرف على بعض مذاهب الحياة والعلوم في ايطاليا فعمل على تطبيقها في بناء الحصون والقلاع في لبنان؛ وتمكن من قهر اعدائه امثال آل سيفا حكام طرابلس وهدم حصنهم في عكار . وفتح الامير فخر الدين الشواطي للتجارة ، ومكن تجاراً افرنسيين في صيدا من بناء بعض الفنادق والخانات . بيد ان الدولة العثمانية كانت تنظر الى اعماله نظر الموجس المضطرب الحذر ، ثم ما لبثت ان ساقت عليه جيشاً عظيماً قهره في وادي التيم حيث قتل ابنه الامير علي ثم شقيقه الامير يونس متأثراً من جراحه ، فانهزم لاجئاً الى قلعة شقيف ثم الى احدى المغاور ، ثم سلم نفسه الى الوزير المنتصر فسار به مغلوباً على امره الى الاستانة حيث قتل سنة (١٦٣٥)

وخلفه على الامارة الامير ملحم ابن اخيه وسنة ١٦٥٧ خلف الامير ملحم ولداه احمد وقرقماز ثم بعد وفاة قرقماز استقل الامير احمد بالامارة ، واستمر لبنان في عهده يرتقي بتواصل علاقاته التجارية مع اوروبا

التجارة والزراعة في ايامه

وقد نشط الامير فخر الدين الزراعة واكثر من غرس التوت ، وهو الذي ادخل الموارنة من المسيحيين الى لبنان الجنوبي كي يعملوا على حراثة الارض وزرعها باسم اصحابها من الدروز

وكانوا يشحنون في ايامه من صيدا عدا حرير الشوف القطن والزيت

والارز ، وعادت الي بيروت ايام عزها فكانت المراكب الاوربية ترسو آمنة مطمئنة فيها وفي غيرها من المدن الساحلية

...

اسئلة

١ = اذكر ما تعرفه عن الامير فخر الدين المعني الثاني ؟
٢ = لماذا هرب من بلاده وكيف كان ذلك ؟
٣ = ما هي اعماله واصلاحاته ؟
٤ = كيف كان حال التجارة والزراعة في عهده ؟

***

الفصل الثاني والعشرون

سوريا في القرن الثامن عشر
١٨٠٠

الاحوال العامة ، الانكشارية ، حكومة لا مركزية
تركيا وعمالها في سوريا

الاحوال العامة

ليس في تاريخ سوريا المتوسط ما يستوقف النظر فهو عبارة عن فتن وحروب وسؤ ادارة وفوضى ؛ كانت البلاد تسير من فساد الى فساد

وشقاء الى شقاء ، وكان الولاة يتعاقبون على القطر ، والسعيد منهم من يحول عليه الحول ، واكثرهم يقيمون فيها اشهراً ثم يصرفون ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم اياماً فقط ولقد تعاقب على دمشق في قرن واحد واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة واربعون فكان الوالي لا يتمكن من الاصلاح وان اراده ، وكان لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المتنوعة ، يتخذه سبيلاً لارضاء اصحاب النفوذ في الاستانة ، وكان الولاة يبتاعون الولاية ابتياعاً والمزايد الاكبر هو الذي ينال مطلبه

الانكشارية

ومن اعظم العوامل في اشقاء سوريا ايضاً في العهد العثماني التركي خروج الجند التركي (الانكشارية) عن حدهم واعتدائهم على الناس ، وبطشهم بالشعب ، يستطيلون على امواله وعرضه ولا من رادع ولا وازع ذلك انهم كانوا في البلاد القوة القاهرة التي لا تغلب

حكومة لامركزية

ولقد كانت سوريا في القرن الثامن عشر حكومة لامركزية اي حكومات امراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته ، فاذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلان حكمه لا محالة ، ومن خالف عادات البلاد او اخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم وكان الشيخ او الامير يجبي الضرائب ويقدم المتوجب عليه للوالي ويأخذ الباقي لنفسه واذا حدثت فتنة او خيف من وقوعها كان الوالي يطلب المعاونة من امراء منطقته فيخرجون بانفسهم و رجالهم وفرسانهم ، وكثيراً ما

كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة وقد ادى هذا النظام الى انتشار الفوضى واختلال الامن وسبب للحكومة التركية خسراناً كبيراً في الاموال والرجال وكان كثيراً ما يثور احد الامراء فتجهز الدولة جيشاً لمحاربته فاذا تمت لها الغلبة عليه اقتلعت اشجاره وخربت مزارعه ، وهذا غاية في التدمير وخراب البلاد

تركيا وعمالها في سوريا

ولقد طلع القرن الثامن عشر على الدولة العثمانية وهي لا تفكر في غير مصائبها الخارجية ، والمملكة التي تمتد من اسوار فينا حتى جنوبي بلاد العرب لا وحدة فيها ولا جامعة تجمعها ، وليست متجانسة ولا متماثلة تكافحها الثورات الداخلية ، وتساورها الحروب الخارجية ، فلم تكن تعمل لدفع الاولى ولا لاتقاء شر الثانية ، وكان نصيب سوريا من هذه الفوضى الشر الاكبر ، فقد ندر ان كان يهبطها من الاستانة حاكم صالح في اخلاقه معروف باستقامته ، وكبر عقله وسعة معرفته ، يحسن الادارة ويكف المظالم ، فكان كل من يقصدها يقصدها لغاية هي جمع الاموال وانشاء ثروة كبرى تكفيه واولاده واحفاده . وكانت الضرائب لا تجبى بصورة منتظمة قطعاً فقد تجبى جباية سنتين او ثلاث في غير اوقاتها وفي آن واحد ، ولا تراعى في الجبايات اعوام القحوط والجدوب

واذا ضاقت الحال باحد العقلاء فرفع صوته بالشكوى عدوه ثائراً وحرفوا دعوته وسفهوا امره ورأيه هذا ان لم يعملوا على القضاء عليه

سياسة الاستانة

وكانت حكومة الاستانة قلما تفكر في استئصال الشر، ومابحثت قط عن اسبابه وقلما اهتمت للفتن المحلية الا اذا التهب شرارها وخيف منها على سلطانها، ولماذا تهتم وهي تضرب القطر بشقيقه؛ والامير برفيقه واذا اوجست شراً من وال او صاحب نفوذ سلطت عليه جاره او خصمه؛ فالناس في سوريا ابداً متعادون متشاكسون وهو ما عمل على تمزيق الوحدة السورية في السياسة والدين والاجتماع

مظالم الولاة

بدأ هذا القرن وعبدون باشا والي صيدا يملأ البلاد ظلماً وجوراً، وجعفر باشا والي دمشق ليس دونه في المظالم، اما الامراء المتغلبة من ابناء البلاد فكان اكثرهم من احفاد الذين سبقوهم في عكار ولبنان ووادي التيم وبعلبك وحوران والكرك وسليمية، وقد ثار اهالي دمشق في هذا القرن على واليهم لارتشائه وطردوه من الشام ورفعوا علم الثورة الا ان ذلك لم يطل طويلا فقد اقتصت الدولة التركية من العاصين فارهبت الباقين.

الثورات الداخلية

وثار الحمويون ايضاً على متسلمهم او حاكمهم لتعديه وظلمه فاخرجوه من البلد قهراً، فذهب الى المعره وشكى اهل حماه الى الاستانة فجاء الامر بقتل زعيمهم وهكذا كان.

ولقد كانت البلاد في فوضى مابعدها فوضى؛ حتى صارت ارض

الشام تعج بالظلم وكثر استلاب الاموال ، وحدث في منتصف القرن الثامن عشر ان ثارت فتنة في دمشق فظلت ثلاثة ايام مقفلة ، وقتلت فيها جماعات كثيرة وكان مثلها في حلب .

ظهور آل العظم

وعرف هذا القرن بظهور آل العظم حكاماً على الشام وقد اختلف الباحثون في اصلهم ، وتولى اولهم اسماعيل باشا العظم ولاية الشام في منتصف القرن

وفي هذا القرن ايضاً جهز مماليك مصر حملة على سوريا بقيادة محمد ابو الذهب فاستولى عليها حتى حلب وحاصر دمشق ولكن الشاميين رشوه فرجع عن فتحها الى مصر . ثم عاد بأمر السلطان لمحاربة الشيخ ظاهر العمر [١] وكان عاصياً في عكا فدمر كثيراً من البلاد ثم توفي وكانت البلاد قد صارت خراباً

اسئلة

١ – تكلم عن الاحوال العامة في سوريا اول هذا القرن ؟
٢ – اذكر ما تعرفه عن عمال تركيا في سوريا ؟
٣ – كيف كانت حكومة سوريا ؟
٤ – كيف كانت سياسة الاستانة في البلاد ؟
٥ – اذكر شيئاً عن مظالم الولاة ؟
٦ – ما تعرف عن الثورات الداخلية ؟
٧ – صف الحالة العمومية في سوريا في القرن الثامن عشر ؟

(١) كان ظاهر العمر ١٧٥٠ – ١٧٧٥ رجلاً جريئاً جسوراً استولى على عكا وحكم بلاد المتاولة وعصى تركيا واخذ يناوش جنودها حتى تمكنت منه سنة ١٧٧٥ فخلفه الجزار في عكا ، وكان الجزار اكبر عامل على اهلاكه

الفصل الثالث والعشرون

لبنان في القرن الثامن عشر

١٨٠٠

الشهابيون ، احمد باشا الجزار ، نابليون بونابرت

الامير بشير الشهابي الاول ، الامير ملحم ، تنصر الشهابيين ، الجزار وسياسته اخلاقه ، اعماله في عكا ، نابليون في سوريا

لبنان في القرن الثامن عشر

نحن الان في اول القرن الثامن عشر وكان الامير احمد بن معن قد توفي قبل ثلاث سنوات (١٦٩٧) فانقرضت بموته الدولة المعنية اذ لم يكن له عقب ، واجتمع المشايخ من المقاطعات السبع في لبنان وانتخبوا مكانه الامير بشير بن شهاب من امراء وادي التيم حاكماً على لبنان فتولى الحكم واحبه الناس لانه كان عادلاً كريماً .

وكانت البلاد يومئذ حزبين : قيسي ويمني وكان الاولون من انصار الامير بشير وكانوا اكثر قوة واشد عصبية من اليمنيين فاضطر هؤلاء إلى الرضى قسراً بامارة الامير بشير الاول

الامير ملحم

وتوفي الامير بشير سنة (١٧٠٦) فخلفه الامير حيدر الشهابي وكان

حازماً قوياً تغلب على الحزب اليمني وسحقه ، وذلك في معركة عين داره سنة (١٧١١) واخذ يتفرغ بعد هذا الانتصار لاصلاح شؤون لبنان وتحسين احوال اهله ، وترتيب ادارته فجعل جميع عماله من حزب القيسية وامتد نفوذه حتى بلاد بشارة وحاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك

تنصّر الشهابيين

وخلفه سنة ١٧٣٢ الامير حيدر ابنه وكان المال الذي يؤديه كل سنة الى الدولة عن البقاع الغربي (٢٥٠٠) ليرة عثمانية وفي ايامه دان اولاده بالنصرانية واقتدى بهم بعض الامراء اللمعيين تاركين مذهبهم الدرزي ، وكان السبب في تنصرهم اكتساب موالاة الطائفة المارونية لانها كانت اكثر الطوائف اللبنانية عدداً وخطراً

وخلف الامير ملحماً بعد مرضه واستقالته عماه الاميران احمد ومنصور فاختلفا وانقسم الدروز والموارنة الى اقسام يشايع كل منها اميراً ثم اخلد الامير احمد الى السلام واستقل الامير منصور بالحكم ، ولكن على اثر انتصارات ابن اخيه الامير يوسف على الشيعيين اضطر الامراء الامير منصوراً الى الاستقالة فخلفه الامير يوسف سنة ١٧٧٠

احمد باشا الجزار ١٧٧٥ — ١٨٠٤

ولكن الايام لم تمكن الامير يوسف من الراحة فقد بلاه الله بالرجل الهائل احمد باشا الجزار من رجال الدولة المستبدين وكان يرمي الى تأسيس مملكة لنفسه تشابه مملكة الامير فخر الدين المعني ؛ وكان هذا

الرجل ارناأوطياً اتصل بالامير يوسف حاكم لبنان فادخله في خدمته وفوض اليه قيادة بعض جنوده ، ثم عهد اليه بالمحافظة على مدينة بيروت اكبر مدن ولايته اللبنانية ، فسولت له نفسه ان يغدر باميره فطفق يحصن مركزه الجديد ، واراد الامير يوسف اخراجه فامتنع عليه ، واستجار بالشيخ (ظاهر العمر) حاكم عكا ، ثم اخذ يحتال على الشيخ ظاهر ويساعد الاستانة على قهره واذلاله وكان عاصياً حتى ارداه ، فحفظت له الدولة هذا الصنيع وعينته والياً لايالة صيدا سنة (١٧٧٢)

الجزار في عكا

وقلق الامير يوسف لترقية الجزار ومجاورته له ، فسعى الى قتله بكمين نصبه له قرب الدامور فنجا الجزار منه اذ كان قد أخذ حذره ، وشرع يعمل على توسيع منطقة نفوذه فاستولى على املاك الامراء الشهابيين في البقاع سنة (١٧٧٦) واخذت سلطته تمتد يوماً فيوماً من سنة ١٧٨٢ حتى وفاته سنة ١٨٠٤ ، وتمكن من الحصول تكراراً على ولاية دمشق وطرابلس ، وكان يدرأ عنه شكوك الدولة العثمانية في مقاصده باداء مبالغ جسيمة للمتنفذين فى الاستانة ، ثم نقل مركز اعماله واقامته من صيدا الى عكا ، وصرف اهتمامه الى تحصينها واصلاحها ، حتى صيرها بما انشأه فيها من الاستحكامات قطعة قوية منيعة ، واعدها للتجارة الاوروبية باجراء التسهيلات اللازمة ، وعلى هذا المنوال سار الجزار في ادارة ايالته فكان كأنه ملك مستقل لا يدفع من الجزية الا ما شاء . وكيف شاء ومتى شاء

الجزار واخلاقه

وكان الجزار جائراً فاتكاً سفاكاً للدماء ذا حزم ودهاء وتدبير؛ نظم ما امكن من شؤون الايالة ورتب ماليتها، وناوأ امراء الجبل بالدهاء والحيلة فقسمهم بعضهم على بعض اتقاء اتحادهم عليه، وتشدد في ضروب المساومة ثمناً للمناصب يبيعها بيع السلع

فكان الامير الكبير يضطر الى قبول المقترحات والشروط الثقيلة تفادياً من غلبة مزاحميه ونظرائه، وهو مضطر بدوره لزيادة الضرائب لسد العجز وتقديم المال اللازم، حتى لم يبق في مندوحة الامير يوسف الاصطبار فتآمر واحد اعوان الجزار على الثورة ولكن الجزار هزمهما في معركة قب الياس سنة (١٧٨٨) وانكفأ الامير يوسف منهزماً لا يقوى بعدها على البقاء في منصبه فاستقال للامير بشير ابن اخيه الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره، وهذا وشى به بعد فترة من الزمن الى الجزار، فحبسه وهلك في السجن

نابليون بونابرت في سوريا ١٧٩٩

وبينما كانت الفتن الاهلية تشتعل في البلاد، والبلاد قد ضعفت فيها كل قوة، والدولة العثمانية كلما رأت عاملاً قوياً تكتفي بان تضع له في جواره عاملاً اخر ليظل في خلاف وخصام معه، وسوريا خالية من وسائل الدفاع هاجم الجنرال نابوليون بونابرت الفرنسوي سوريا سنة ١٧٩٩ بطريق العريش بعد ان فتح مصر ومعه ثلاثة عشر الف مقاتل

ولما بلغ الجزار قدوم الجيش الفرنساوي من مصر الى عكا اسرع

الى تدبير ما يحتاج اليه في الحصار ، وارسل الى يافا جنداً وحصنها بالمدافع واخرج المسيحيين من المدن الساحلية اكتفاء لشرهم

واستولى الفرنسويون على يافا وغزه بعد حصار يسير وتقدموا الى حيفا فسلمت لهم ، ثم ذهبوا الى عكا وفيها الجزار فحصروها

خسارة الحملة

وكانت بين الفرنسويين وجند من دمشق معركة انهزم فيها الجند الدمشقي وعاد الفرنساويون الى عكا يحاصرونها ويشددون عليها الحصار وهي تقاوم ببسالة ونجدة ، وكان الفرنسويون يهجمون على الاسوار والقنابل تنهال عليهم كالمطر ؛ وقد تمكنوا فعلاً من هدم بعض اسوارها ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها ، وقد فقدوا على سورها ثلاثة الاف وخمسمائة جندى ، ومات في الطاعون وعلى الطريق ما يزيد عن الف . ولما رأى نابوليون ذلك وما كان من اثارة انكلترا الشعوب والدول عليه كر راجعاً الى مصر . وكانت مدة مقامه في سوريا شهرين

نابليون والامير بشير

وكان نابليون قد سأل الامير بشيراً الكبير أن ينضم اليه وان يساعده في حصاره لعكا فاجابه على كتابه اولاً بالسكوت ثم بالوعد بالمساعدة بعد فتح عكا ؛ فحفظ الجزار للامير بشير هذا الوعدلنابليون واقسم لينتقمن منه بعد انصراف الفرنسويين عنه

ولقد تم انسحاب نابليون من سوريا بمشقات عظيمة ، ولم يمض شهر على رجوعه الى مصر حتى كسر الترك في (ابي قير) ثم ابحر بعدها الى فرانسا خلسة ، لان الاسطول الانكليزي كان يحرس البحر يومئذ وترك الجنرال كليبر وكيلاً عنه في مصر

ولم تترك حملة نابليون في سوريا اثراً يذكر لسرعتها اذ انها لم تتجاوز الستين يوماً ، ولو تم لنابليون ما اراده من الاستيلاء على الشرق لكان للتاريخ الحاضر خبر جديد وحديث عجيب

***

اسئلة

١ – اذكر ما تعرفه عن قيام الامراء آل شهاب في اول القرن الثامن عشر ؟
٢ – تكلم عن الجزار وسياسته واخلاقه؟
٣ = ما تعرف عن علاقات الجزار والامير يوسف ؟
٤ = كيف كان الجزار في ايالته ؟
٥ – كيف نزل نابليون الى سوريا ؟
٦ – ما تعرف عن حملة نابليون الى سوريا ؟
٧ – كيف تم انسحاب الحملة من سوريا ؟
٨ = ما هي نتائج الحملة في سوريا ؟



العرب والاسلام

فصول في التاريخ العربي والاسلام

الفصل الرابع والعشرون

العرب في الجاهلية

العرب والصحراء ، اخلاقهم ، عاداتهم ، حياتهم الاقتصادية ، الشعر والشعراء ، غموض التاريخ العربي القديم

العرب والصحراء

ليس يقل الذين يتكلمون العربية في هذا العصر عن سبعين مليوناً يقيمون في دول متجاورة تمتد حول الشاطيء الجنوبي للبحر الابيض المتوسط وتحيط بالبحر الاحمر وتمتد داخل آسيا الى العراق وتتسلل بعده الى طوائف العجم وافغانستان وتركستان والهند يدين جلهم الاسلام . وقد خضعوا منذ اكثر من الف سنة لمصائر متشابهة فسرت بينهم مع وحدة اللغة والعقيدة والحظ وحدة في الفكرة وفي الحضارة جعلت منهم كتلة تتأثر بمؤثرات متشابهة وتنظر الى المستقبل وامكل منها فيه مالسائرها من رجاء وامل .

هذه الوحدة في اللغة والعقيدة والمصائر يرجع تاريخها في هذه الامم

جميعاً الى تاريخ دخول الاسلام اليها مع العرب الفاتحين . اما قبل ذلك فكان لكل امة منها لغتها وعقيدتها وكانت امم افريقيا تكاد تنفصل عن امم آسيا خلا سوريا وفلسطين وما يتصل بهما ، فكانت في اكثر حقب التاريخ وشيجة الاتصال بمصر وان استقلت بلغتها الآرامية عن الهيروغليفية وغير الهيروغليفية من اللغات التي استقرت على ضفاف النيل . ولقد لعبت هذه الدول التي اتحدت لغة وعقيدة ومصائر بعد الاسلام دوراً العالم من اكبر الادوار في تاريخ لا يزال اثره بارزا واقرت في العالم حضارة لايزال اثرها ولن يزول .

الحياة العربية

كان لكل امة من هذه الامم قبل الاسلام لغتها وعقيدتها ،وكان مصير بعضها يتعلق تارة بدولة كبيرة كدولة الفراعنة أو دولة الروم أو دولة الفرس ، ويتحكم تارة في مصائر هذا الغير من طريق الغزو أو من طريق الدين كما كان الامر بعد ظهور اليهودية والمسيحية . اما العرب المقيمون في شبه الجزيرة والذين نشروا الاسلام في اقطار الارض بعد ما نزل وحيه على رجل منهم فقد كانوا قبل الاسلام كما هم قبائل وعشائر تعيش في بلاد كانت ، كما لاتزال ، قاحلة لايتجه نظر احد للاستيلاء عليها ان لم يكن من هذا الاستيلاء أية فائدة، ولذلك لم يفتحها اليونان والرومان كما فتحوا سائر الممالك المجاورة لها . وكانت تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة اكثر من اعتمادها على الثمرات القليلة الضئيلة التي وهبها القدر اياها . وكانت بلادهم بموقعها بين آسيا وافريقيا وبجدبها واضطرار

اهلها للسعي في مناكب الارض وراء الرزق طريق التجارة بين الامم المحيطة، بها وكان البر يومئذ وسيلة صالحة للنقل لان البحر كان لما يزلل متنه ولما يخضع لحكم الانسان عبابه، لكن العرب لم يكونوا لذلك تجاراً بل كانوا حماة للتجارة التي تمر بارضهم من غزو القبائل اياها وعدوانهم عليها كما كانوا اصحاب رواحل تنقل المتاجر من مصدرها الى موردها وهذه الحياة التي تقضي في الحماية من غزو المعتدي وفي نقل التجارة من بلد الى بلد تدفع الى النفس أسمى معاني البطولة والاقدام والاعتماد على النفس والاعتداد بالذات. لكنها كذلك حياة قاسية قليل ما تدره من الربح، كثير ماتستغرقه من وقت من يعانيها. وهي بعد حياة تجوال قل أن يستقر صاحبها الى ذويه، وقل ان تسمح بقيام المدن وتكون الجماعات المتشابكة المصالح القائمة حياتها العامة على التضامن والتنافس جميعاً. وما تزال تلك هي الحال الاقتصادية في شبه جزيرة العرب الى يومنا الحاضر. فالمدن فيها قليله، والموجود منها قليل عدد سكانه. ولقد حرمت ما كان لها من قبل من مزية مرور التجارة بها بعد ما اصبح البحر اكثر من البر آمنا، لكنها استعاضت عن ذلك بموسم الحج يدر عليهامن فضل الله مايقيم اهلها طول عامهم.

مثل هذه الحياة الاقتصادية التي تقضي على اهل شبه الجزيرة بالعزلة والتجوال وتحتم عليهم مواصلة العمل لكسب الرزق ولا تيسر انشاء المدن الكبيرة ليس في طبيعتها ان تقر حضارة ثابتة القواعد باقية الاثر. ذلك بان الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتماع في الحضر. وهي لا تتفق

وحياة البادية في كيانها على نحو ماهو ظاهر من لفظ الحضارة نفسه . ثم ان الحضارة فيض من عمل الانسانية عن حاجاتها المادية والمعنوية والادبية يزيد من هذه الحاجات ثم يحفز الانسانية في نفس الوقت الى سعي جديد يكون من اثره فيض جديد . وهذا الفيض المتتابع هو الذي نقل الانسانية من حياتها الاولى الى ماتنعم به اليوم من ترف ورفاهية ، وهو الذي سينقلها في حدود النظام والتقدم الى ابعد مدى ترتجيه نحو الكمال .

غموض التاريخ العربي القديم

وهذا هو السبب في غموض تاريخ العرب قبل الاسلام غموضاً يكاد يكون تاماً . فبينا يرجع تاريخ مصر لاكثر من ستة آلاف سنة فيصور لنا حضارة عظيمة ثابتة الاركان والقواعد تمتد من ضفاف النيل عبر البحر المتوسط الى اليونان وروما وتجتاز برزخ السويس الى فلسطين وسوريا وما وراءهما وتظهر فيها الحياة المادية والمعنوية والادبية واضحة الحدود والثنايا ، ثم هي ماتزال تزداد بالبحث والتنقيب ظهوراً ووضوحاً ، وبينا يحدثنا التاريخ عن اليونان وروما ويدل فيهما على حضارة ترجع الى نحو ثلاثة آلاف من السنين ، وبينا سائر الامم التي كانت معروفة في تلك العصور النائية قد تأثرت بهذه الحضارات وأثرت فيها وكانت لها حضارات خاصة – بينا يكشف لنا التاريخ عن هذا اذا به لا يروى عن شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بأكثر من مائتي سنة شيئاً معينا . واذا رواياته عن هذين المائتين من السنين لاتدل على اكثر من ان العرب كانوا أهل باس

ونجدة وحياة معنوية فياضة . اما الحضارة ومظاهرها من علوم وفنون ، أما هذا الفيض الذي يربو على حاجات الانسانية ثم يندمج فيها ليخلفه فيض جديد يندمج ليجيء بعده فيض غيره ، ثم ما يكون من ذلك من التقدم في سبيل الكمال فلا يحدثنا تاريخ العرب قبل الاسلام عن شيء منه . بل لا يزال شبه الجزيرة في تاريخه من بعد الاسلام الى يومنا خلواً من هذا لانه لا يزال كما كان خاضعاً لسلطان الحياة الاقتصادية التي لا تجود بما يقيم الركن المادي من اركان الحضارة .

اخلاق العرب وعاداتهم

على ان الناحيتين : المعنوية والادبية كانتا قويتين في النفس العربية قبل الاسلام ولا تزالان قويتين فيها الى حد عظيم . وهذه القوة المعنوية اثر من آثار قسوة الحياة الاقتصادية العربية ، او هي تعويض عن هذه القسوة تجود به الطبيعة وتقيمه في الكائن الحي فطرة للاحتفاظ بالحياة . فلو ان الحرمان المادي قابله حرمان معنوي لما استطاع هذا البدوي المقيم على شظف العيش ان يجد في نفسه من الهمة ما يتغلب به على شدائد الدهر ونوائب الزمن . بل لو ان نفسه كان فيها هذا الاستسلام الوادع المطمئن الى ما تجود به الطبيعة من عيش ناعم لقضى نحبه جوعاً وظمأ . والقليل الذي بقي لنا من ادب العرب قبل الاسلام وفي صدره الاول ، يفيض بمعاني هذه الهمة وآثار تلك القوة التي كانت دائمة التحفز لمجالدة الطبيعة ومغالبتها . وماذا تسمي هذا الازدراء للتكسب بالشعر الا انه سمو عن المسألة واحتقار لكل من تحدثه نفسه بان يعيش عالة

على غيره وان يكسب حياته من غير جده ونشاطه . ثم ماذا تسمى هذا الترفع من جانب الرؤساء عن قول الشعر الا ان هؤلاء الرؤساء كانوا يرون واجبهم في الدفاع عن عشائرهم والذود عن حياضها والحكم بين اهلها يقضى عليهم بالترفع عن القول الى العمل خصوصاً اذا اوجب هذا القول ما يوجبه الشعر العربي من غزل لا يتفق ورياساتهم الرفيعة . على ان الشعر الذي ناله الرؤساء وغير الرؤساء كان يفيض حماساً ونجدة وينبي عن رفعة في النفس تبعدها عن الدنايا وتدفعها الى اسمى الغايات

الشعر والشعراء

هذا الفقر في الناحية الاقتصادية والغنى في الناحية المعنوية ، وهذه العزلة الدائمة التجوال كل ذلك جعل من العربي رجلاً خيالياً لا يعرف من دقائق حياة الوجود الا قليلا ثم هو مع هذا يرد كل ما في الوجود الى شخصه فيمتلىء بذلك زهواً وافتخاراً . وانت فيما ترجع اليه من اشعار العرب قبل الاسلام لا تجد الا حديث الشاعر عن نفسه . فحبه وغزواته و كرمه ومجده ونسبه وانت تجد ذلك كله مذكوراً بزهو اي زهو ، واعجاب اي اعجاب . فاما ما كان من مظاهر الحضارة في الشعر اما هذا الوصف لحياة الجماعات ونشاطها وغزوات الدول الاجنبية اياها وفخارها بالنصر وألمها للهزيمة مما تجده في الياذة هوميروس ، واما هذه الفلسفة الدينية او الوثنية التي تعبر عن ايمان الجماعة وآمالها في الحياة وفيما بعد الحياة مما تجده في اثار المصريين واليونان والرومان ، هذه الفلسفة التي تعبر عن نظام الجماعة التي فرغت من سعيها لحياتها وجلست تفكر

في امسها ويومها وفي الحياة والموت وما بعدهما . واما هذه القصص التي يتلهى بها اهل المدن في مسارحهم حين قصفهم ولهوهم . اما غير هذا وما اليه من اثار الفكر والفن ومن ثمرات الحضارة فلا تكاد تحسه في الشعر العربي قبل الاسلام . وكيف تطلبه الى قوم حياتهم الاقتصادية ما رأيت ولهوهم هو هذا الغزل بالنساء والاشادة بالحب وذكره؟؟ والحب كما تعلم ليس الا حديث بقاء النوع، كما ان الكفاح ليس الا حديث الاحتفاظ بالحياة

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام . اعدتهم الطبيعة لحياة العزلة والجهاد فظلوا قبائل لحمتها النسب وسعيها حماية الجار عربياً كان او غير عربي . وانت لن تجد في شعر الجاهلية معنى اسمى من هذه الحماية وبذل النفس في سبيلها واستعداء العشيرة على من يعتدي عليها . كما انك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطبيعة غير الغزل جاوز عندهم ما تدفع اليه فطرة استبقاء النوع وتحسينه الى ان صار فناً يفكر معه الاعرابي في محبوبته على انها أمل يتخيله وصورة يصل في وصفها الى ما لم يصل اليه سواه ، وذلك ان الشاعر العربي القديم كان يقاسي من ضرورات الحياة ما يقاسي ثم لا يجد من صور الترف والنعمة سوى المراة . فكان لذلك يسبغ عليها كل ما في عقله وقلبه وكل ما في بصره وبصيرته من الصور والمعاني .

العرب قبل الاسلام

اما ما سوى هذه المظاهر من صور الحياة فلم يذكر التاريخ عنها شيئاً واذا كان بعض المؤرخين قد وجد في بلاد اليمن وفي بعض سواحل

العرب شيئاً من اثار الحضارة فذلك لان تلك السواحل كانت في حياتها الاقتصادية احسن حظاً من داخلية البلاد المحاطة بالصحراء ، لكن حظها لم يكن من الوفرة بحيث ينيل ماوراءها من المتاع المادي الذي يقيم الحضارة في شبه الجزيرة او في قسم منها ذي قوام خاص ، لذلك بقيت حياتها البدوية اساس كيانها وبقي لها من هذه الحياة كل ما سبق وصفه من الاثار [1]

---

(١) ان اليمن خلافاً لاكثر البلاد العربية الباقية ارض قابلة لدرجة عالية من التمدن ولا يخفى ان التمدن لايتولد في قطر ولا ينمو فيه بعد تولده الا باجتماع عاملين احداهما موافقة احوال القطر الطبيعية لسعة العيش التي هي من شروط العمران ، والاخر خصال اهله الحميدة من الذكاء والنشاط والميل الى طلب المعالي ، ولا يقوم التمدن في بلد ، ولا يزدهر العمران في مكان الا بوجود هذين العاملين معاً ولكن قيمة هذا التمدن ودرجته لاتزال من الامور المعروضة على بساط البحث ، وليس هناك في ما كتبه اليونان والرومان والعرب عن اليمن واخبارها شيئاً يصح الاستناد عليه في الحكم الفاصل ، ولكن فيها ادلة كافية على وجود تمدن عظيم في اليمن القديم ونضرب على ذلك مثلا مارواه سنة ١٣١ قبل المسيح الجغرافي اليوناني اغاثر خيدس عن المباني الفاخرة والنقوش الباهرة والتماثيل الجميلة والاواني الذهبية الموجودة في تلك البلاد ، وما ذكره في القرن الاول للمسيح الكاتب الروماني بلينوس الاكبر عن المدن اليمنة والحضرمية مثل (رمنا) Ramna ذات الخمسة والستين هيكلاً لعبادة الهة البلاد ، وساباتا Sabata ذات الستين هيكلا وماريابا Mariaba البالغ محيط سورها مسافة ستة اميال فمثل هذه المدن والمباني لايمكن ان تقوم الا في قطر عظم التمدن كثير العمران .

اما ثروة قدماء اليمنيين فقد رواها العرب وايدها مؤرخوهم غير مرة وجاء في كتاب الاكليل للهمداني ان الناس يغزون القصور الخربة بين الجوف ومأرب لاستخراج ذهبها والاستيلاء على كنوزها ، وقال مثل ذلك في كتاب صفة جزيرة العرب صفحة (٧٩)

ولما جاء الاسلام كانت شبه الجزيرة على حالها القديم منقسمة شيعاً وقبائل كل منها ذات كيان مستقل بحاله من نسب وتقاليد ولهجة عربية تختلف قليلاً او كثيراً عن لهجة قريش ، لكنها كانت جميعاً ذات حياة معنوية وادبية ممتازة في القوة ، وكانت هذه الحياة المعنوية غير متفقة مع ما كان سائداً بينها من عقائد اورثها اياها سلفها وجنى عليها ما كان يرد اليها مع ابنائها حماة التجارة من عقائد القبائل والشعوب المجاورة . لذلك وجدت كلمة الاسلام في بساطتها وقوتها وحقيقتها مرعى خصباً في نفوس ترجو ان تطمئن ، فلما اجتمعت كلمة العرب في شبه الجزيرة حول الاسلام وتناصرت قبائلهم المتقاتلة واصبحوا امة جمعت كل قوى العربي المعنوية اتجهوا الى الفتح ليقيموا الدين ولينشئوا ذلك الملك العربي العظيم [1]

في قصر خرب في شرق بلدة وضاحة انه « لايزال يوجد فيه الجوهر والذهب والناس يغزونه كما يغزون خربات الجوف »

(١) اقتطفنا هذا الفصل بتصرف قليل عن مقال للدكتور هيكل بك، اما التعليق عن تاريخ اليمن فهو للمؤلف .

الفصل الخامس والعشرون

عصر الخلفاء الراشدين

الفتح العربي اسبابه وتأثيره ، العرب والروم ، ابو بكر وعمر بن الخطاب
الفتنة في الاسلام

الفتح العربي اسبابه وتأثيره

توفي النبي عليه السلام وقد ترك الامه العربية لخلفائه حزباً واحداً وعصبة واحدة بيد ان هذا الاتحاد كان له نزواته وسقطاته ومثل ذلك فتنة الرده يوم قام بعض الاعراب بعد وفاة النبي ويوم بلغهم خبر وفاته

اشرنا في الفصول المتقدمة الى هذا العصر فاجملنا وصفه ورجاله واتينا على ذكر بعض فتوحاته ، واقتضبنا ماامكن عن التبسط في كتاب صغير ، وفصول محدودة ، ذلك ان مثل هذا العصر يحتاج الى درس طويل ، وبحث جديد يتناول كل فروع السياسة والوان الحياة ، وقد نعود الى ذلك في كتاب قادم .

وقد رأينا ان لاندرس سيرة النبي العربي عليه السلام في هذا الكتاب لان المجال واسع والمقام جليل . ولا بد لدرسها من بحث وجهود ، ورأينا فوق ذلك ان تدرس سيرة النبي عليه السلام في كتاب خاص ، ككتاب الاستاذ الغلاييني والخياط وهي بين ايدي التلامذة في كثير من المدارس الوطنية .

يأبون دفع الزكاة ، وكان ابو بكر قد ولي الخلافة وبايعه المسلمون فعقد الالوية لقواد من الصحابة فساروا وكان النصر حليفهم فدان العرب الثائرون للنظام ورجعوا عن فتنة لو توسعت لقضت على الامبراطورية العربية والدين الاسلامي

ولا جرم ان عصر الخلفاء الراشدين من اجمل عصور الاسلام واشدها وقعاً في النفس فقد كانت فيه الدولة العربية في فتوتها والدين في شبابه فكنت ترى فيه مظاهر من التضحية ، والواناً من الاخلاص لن تراها في عصر من العصور ذلك ان القوم في ذلك العهد كانوا زاهدين في ما سوى اعلاء شأن الدين ورفع مستوى الامة .

ابو بكر الصديق

لقد كان ابو بكر اول الخلفاء الراشدين رأس الصحابة وشيخ المسلمين ، وكان رجل حزم واخلاص وبعد نظر سار في المسلمين سياسة وسطاً فاعطى كل ذي حق حقه ، وعمل على نزع الضغائن فولى بعضاً من آل سفيان — وقد ذهب الاسلام بعزهم في الجاهلية — قيادة بعض الجيوش وعقد البعوث لغيرهم من الامراء فكان العرب في خلافته يضربون على حدود امبراطورتين من اعظم امبراطوريات التاريخ القديم ، في العراق على حدود فارس ، وفي الشام على حدود العراق ، وكان قد كتب الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب ونجد والحجاز يستفزهم للجهاد في الشام ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع فعقد ثلاثة الوية لثلاثة رجال هم يزيد

ابن أبي سفيان، وشرجيل بن حسنه وعمرو بن العاص وقد اتينا على وصف ذلك في القسم الاول من هذا الكتاب وذكرنا كيف تقدم هؤلاء القواد الثلاثة الى حدود الروم يفتحون مدنها ويؤمنون اهلها .

واليك وصية ابي بكر ليزيد بن ابي سفيان « لا تغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل ، هرماً ولا امرأة ولا وليداً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً الا ما اكلتم ولا تحرقن نخلاً ولا تخربن عامراً ولا تغل ولا تجبن »

بيد ان جيوش الروم كانت كثيرة العدد فضاق المسلمون ذرعاً فكتب ابو بكر لخالد ابن الوليد وهو في العراق ان ينزل للشام فلما وصلها كان المسلمون يحاصرون بصري فافتتحها على ان يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة

العرب والروم

ولقد قاتل الروم العرب عن الشام قتالاً شديداً ، وكان العرب منقسمين على بعضهم بعضاً كل قائد لوحده وبمفرده فوحد خالد بن الوليد جمعهم وضمهم بعضهم الى بعض ونازل الروم في معركة اليرموك وهي اعظم معارك سوريا خطراً واجلها شأناً ، ودارت الدائرة فيها على الروم فقتل منهم الوف ، وحقت الغلبة للعرب فدانت لهم سوريا بعد الموقعة واخذوا بوضع النظام والامان لمن قدم الطاعة وقبل بالحكم الجديد .

وفتح عمرو بن العاص غزه ونابلس ورفح ويافا وغيرها من اعمال فلسطين وحاصر القدس حتى رضيت بالتسليم على يد عمر بن الخطاب نفسه وكان قد تولى الخلافة بعد وفاة ابو بكر فدانت بذلك سوريا

وفلسطين للعرب وامتد الحكم العربي منها الى انطاكيه من اعمال الاناضول .

ولقد يعجب القاريء وهو يتتبع هذه الحروب والفتوحات ان يتمكن العرب وهم أقل من اعدائهم عدداً وعدداً ، وقد قطعوا صحارى الحجاز والشام على جمالهم وخيولهم ، وساروا في فلوات لا ماء فيها ولا مراعي لانعامهم ، وكل مالديهم من الماديات قليل ضئيل ، من الغلبة على الروم على كثرة جيوشهم ووفرة اسبابهم من المؤن والذخائر في ارض عامرة هي وما وراءها الى ارض الروم والنجدات تأتيهم على ايسر سبيل ، ومع هذا فقد كثرت هزائمهم وعد قتلاهم بالالوف وقتلى العرب بالمئات ، أليس في ذلك دليلاً على القوة المعنوية الفياضة التي كانت في نفوس اولئك الغزاة من البدو ، الشريفي النفس ، السامي الخلق .

وليس من شك في ان لتأليف جيش الروم من الجنود المستأجرة دخلاً في الهزيمة اضف الى ذلك ما كان فيه من الارمن والدخلاء ، وقد ساعد العرب المتنصرة العرب المسلمين في هذه الحروب ، فكانت النعرة الجنسية اقوى من النعرة الدينية ولا جرم ان هذه النعرة العربية كانت عمومية يومئذ لا فرق فيها بين عربي مسلم وعربي مسيحي ، الا ان الاول حمل لوائها فتبعه الثاني بعد تردد قليل .

واغرب من كل ذلك ان يضيف العرب الفاتحون الى انتصاراتهم العظيمة ، شرف الخلق ، وعظمة العواطف ، وحلم القوي ، فقد حفظوا النظام في البلاد المفتوحة وعملوا على استتباب الامن فيها ، وأمنوا

المغلوبين على اموالهم ونفوسهم وعيالهم واملاكهم وفي ذلك مظهر من اجمل واسمى مظاهر النفس العربية .

ابو بكر وعمر بن الخطاب

توفي ابو بكر الصديق رضي الله عنه وليس في بيت المال الا دينار واحد سقط من غرارة ، واوصى قبل وفاته ان تباع ارض له وان يدفع ثمنها الى بيت مال المسلمين بدلاً من الدريهمات القليلة التي تناولها منه وهو خليفة المسلمين وامير العرب وكان شأن خليفته عمر بن الخطاب — الخليفة الكبير الاعظم = مثله في الزهد والورع وفي الشدة والمحاسبة على العمال والامراء ، حتى لقد استكثر خمسمائة الف درهم حملت اليه من البحرين فقال لحاملها « اتدري ماتقول ؟ » قال « نعم مئة الف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال « ايها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عداً » .

فاذا عرفت ذلك فاذكر توسع العمال بعد هذا العهد واستكثارهم من المال والثياب واعلم ان غلة عامل من عمال بني امية هو خالد القسري امير العراق بلغت ثلاثة عشر مليوناً من الدراهم ، وانه اهدى فيما يقول الرواة الى خليفته على الكوفة في ختان ابنته الف وصيف ووصيفة عدا الاموال والثياب وفكر في ماينتجه كثرة المال ، من تطور في معيشة القوم وفي نظرهم الى الحياة ، وما يستتبع ذلك من تطور الاخلاق والحياة الاجتماعية .

الفتنة في الاسلام

توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتنفس المسلمون الصعداء ، ذلك انه كان رجلاً شديداً ضيق على قريش انفاسها فلم ينل احد معه من الدنيا شيئاً اعظاماً له واجلالا وتأسياً به واقتداء فلما وليهم عثمان بن عفان وكان رجل لين انصرفوا الى الدنيا يجمعون خيراتها ، وانصرفوا الى السياسة يتحدثون بها ، وانصرفوا الى الفتنة يستعدون لها .

ولقد كان الناس في خلافة عثمان بن عفان احد ثلاثة محافظ وهم الزهاد والمتقشفون ومتطرف وهم النفعيون واصحاب المطامع . ومعتدل وهم الذين كانوا بين بين ، فالاول نقم على عثمان ان يترك سياسة الشدة الى اللين ، والثاني غضب عليه ان يولي بني امية كبار المناصب ، وان يغض عنهم وعن سياستهم احياناً والثالث اعتزل الجماعتين وترك لهم الحبل على الغارب فكان حتماً والحالة هذه ان تنشب الفتنة بين المحافظ والمتطرف وان يكون وقودها المسلمين انفسهم .

ولعل اكثر ما تجزع له النفس ويدمى له الفؤاد انصراف المسلمين في هذا العهد والذي يليه عن محاربة العدو الى مقاتلة بعضهم بعضاً ، وليس يدرك فضل الخليفتين ابي بكر وعمر على الدولة الاسلامية الا من درس التاريخ الاسلامي وعرف ما كان يهدد الاسلام من الانحلال لولا قضاء الخلفاء على دولتي فارس والروم ، فلو حدثت هذه الفتنة ، وفارس والروم اقوياء على حدود الاسلام والعربية لزحفت جيوشهما على العربية حتماً ولكان للتاريخ حديث جديد . وللجزيرة العربية غير هذا التاريخ المجيد .

الفصل السادس والعشرون

الدولة الاموية العربية

الجامعة العربية ، هاشم وامية ، معاوية بن ابي سفيان ، الحجاج بن يوسف ، سياسة بني امية ، اشهر خلفاء بني امية ، معاوية وعبد الملك ، وهشام ، انهيار الدولة الاموية ، اسباب السقوط

الجامعة العربية

كان العرب قبل الاسلام يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب فلما جاء الاسلام كان من جملة ما بدّله من احوالهم انه جمع كلمتهم واصبحوا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم ، وكانت الجامعة اسلامية ايام الخلفاء الراشدين ولكنهم كانوا يجعلون للعرب ميزة على من سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام . وقد حرض عمر بن الخطاب العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية وللاستعانه بها على الفرس والروم وكانت سياسته في اوائل دولته تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، ولم يكن في عصر الخلفاء الراشدين سياسة بل كان هناك دولة دينية وخلافة اسلامية اساس احكامها التقوى والرفق والعدل ، بيد ان هذه السياسة لم تكن

مما يلائم العمران وروح الجماعات فكان لابد لها من الوقوف عند حد ان عاجلاً وان آجلاً وكان ذلك الحد قيام دولة عربية جديدة وهي دولة الامويين في مشارف الشام

هاشم وامية

ولقد كان بنو امية كما قدمنا يتحينون الفرص وينظرون الى ما ناله بنو هاشم من جاه وسلطان نظر الحاسد الغاضب فلما ولي الخلافة عثمان بن عفان وهو من امية ؛ وكان ضعيفاً في ادارته ليناً في سياسته تغلب بنو امية على ارادته وتولوا الاعمال في عهده واستأثروا بالاموال. فكان ذلك من الاسباب التي حملت العرب على النقمة عليه وقتله ، ورأى رأس الامويين معاوية بن ابي سفيان في مقتله ذريعة للوصول الى السلطة فسعى نحوها وتم له ما أراده فبايعه الحسن بن علي بعد مقتل والده ودانت الاقطار العربية الاسلامية لسلطان معاوية وسلطان الامويين.[1]

(١) ظهر بنو امية على العرب وتغلبوا على الخلافة، واخذ آل علي بن ابي طالب يطالبون بها ويسعون في ادراكها ، واول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية فغضب اشياع العلويين في المدينة والعراق والكوفة ، وكان امير الكوفة يومئذ زياد بن ابيه وهو من دهاة العرب فشدد في اخماد الثورة وقتل جماعة من المحرضين. وتربص العلويون الان ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الامة يقع على واحد من ابناء علي فترجع الخلافة الى اهل البيت ، ولم يخطر لهم ان يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا ببيعته نقموا عليه وزادهم نقمة ما علموه من تهتك ابنه وقصفه واشتغاله بالصيد عن امور الخلافة ، وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد ، ابى الحسين ان يبايعه وفر الى مكة واكثر شيعته في الكوفة فكتبوا اليه

معاوية بن ابي سفيان

وكان معاوية من دهاة العرب واسع الصدر ، عظيم الدهاء ، وافر العقل ، فكان يغض عن مطاعن اعدائه عليه رغبة منه في اصطناعهم واجتذابهم الى سياسته وقد يتألفهم بالعطاء يستهوي بذلك قلب عدوه وله في ذلك نوادر كثيرة منها ان عقيلاً اخا علي بن ابي طالب وفد على معاوية وعلي لايزال حياً فرحب به معاويه وسر بزيارته فقال له معاوية « كيف تركت علياً » فقال « تركته على مايحب الله ورسوله والفيتك على مايكره الله ورسوله » فقال معاوية « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جواباً تألم منه » ، ثم احب معاويه ان يقطع الحديث مخافة ان يأتي بشيء يسوئه فترك مجلسه بعد ان امر له بمال عظيم » .

وحرضوه على القدوم لينصروه فاطاعهم ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث امير الكوفة عبيدالله بن زياد جنداً لمحاربته فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة يوم عاشوراء من سنه ٦١ هجرية في كربلاء . ثم ندم انصاره وشيعته على قعودهم عن نصرته فخرجوا بعدوفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ يطالبون بدمه وسموا انفسهم التوابين وامير الكوفة لايزال عبيد الله بن زياد فاخرجوه منها وولوا عليهم رجلاً منهم فتغلب بن زياد عليه ، وظهر الآن المختار بن عبيد وكان عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية اخي الحسن من ابيه فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم (شرطة الله) وزحف بهم على ابن زياد فهزمه وقتله ثم اخذ يطارد قتلة الحسين واحد بعد اخر حتى افنى اكثرهم .

ولكن محمد بن الحنفية ابي ان يتنزل الى هذا المعترك السياسي فتبرأ من المختار فحول المختار دعوته الى عبدالله بن الزبير وكان هذا يطالب بالخلافة وقد تحصن في مكة ولكن ابن الزبير لم يستسلم له ولم يثق بدعوته وارسل اخاه مصعباً الى الكوفة سنة ٦٧

وقد تمكن معاوية بالدهاء وحسن السياسة من الوصول الى الخلافة وجعلها ملكاً عضوضاً يتوارثه ابناؤه من بعده ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة وهم كثيرون اهمهم اولاد علي ، على انه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل فكانوا يسكنون الى سياسته رجاء انتقال الخلافة اليهم بعد موته ، فلما نقلها الى يزيد ثاروا جميعاً فاجتمع اربعة ألوية في عرفات سنة ٦٨ هجرية كل منها لزعيم يدعي الخلافة ، الواحد بني امية ، والاخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية والثالث لعبد الله بن الزبير والرابع لنجدة الحروري من الخوارج.[١] ولقد عمت الثورات العالم العربي الاسلامي بعد وفاة معاوية فثارت المدينة ، وثارت مكة ، وثار الحسين ، فحاربه واهلك شيعته .

ولقد انقسمت الشيعة العلوية بعد مقتل الحسين الى فرقتين احداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى اخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرقة الكيسانية ، والاولى اكثر ظهوراً ، واوفر رجالا وقد بايعوا بعد وفاة الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وتسلسلت الخلافة بعده في اعقابه حتى صار الائمة ١٢ اماماً

وكان بنو امية كما قدمنا اذا سمعوا بظهور احد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في اهلاكه فلاقى العلويون في ايامهم ضنكاً شديداً .

---

(١) يقع القارىء على اسم الخوارج بين حين واخر في تاريخ الاسلام منذ خلافة الامام علي حتى انحصار الدولة الاموية ، فمن هم الخوارج ، وما شأنهم وبدؤهم في الاسلام ؟ لما ولي الخلافة الامام علي واعتصم معاوية منه باهل الشام ، ولم يتقدم الى مبايعته اسوة بالمسلمين جند علي عليه الجند ، وتقدم معاوية بدوره مع رجاله من اهل الشام فتقاتلا في صفين وكاد ينهزم معاوية فتداركه عمرو بن العاص بخديعته الهائلة وهي ان يرفع

وثار ابن الزبير وتابعه العراق فلم يبق لخلفاء معاوية من سلطان الا في القطر السوري ومصر .

فلما تولى عبدالملك بن مروان الخلافه كان العالم الاسلامي في حالة خطيرة من الفوضي والاضطراب

الحجاج بن يوسف

وكان عبد الملك داهية حازماً عجم رجاله ، فوجد الحجاج اصلبهم عوداً فارسله الى العراق ، وهو مهد الثوره ومركز الدعاية السياسية ضد الامويين ، و اطلق يده في الحكم بعد ان هزم مصعب ابن الزبير في معركة فاصلة ، وكان الحجاج من رجال العرب واشدائهم فسطا على العراق بكل ما أوتي من قوة ودهاء وطغى في أحكامه فارهب الناس فكان

الجند المصاحف على اطراف الرماح وان يدعو علياً الى التحاكم اليه . وبقدر قوة الشاميين السياسية كان ضعف العراقيين . فنصحهم علي وبيّن لهم انها شر لهم فلم يستبينوا نصحه وجازت عليهم الحيلة وارغموا علياً على قبول التحكيم وتفويض ابي موسى الاشعري فرضيه ورضي ابا موسى مرغماً . هنا ظهرت جماعة قادرة نقضت ما ابرمته بالامس وانكرت على علي قبول التحكيم . وظلوا ثائرين عليه وحاربوه وحاربوا الخلفاء من بعده . وتلونوا بالوان دينية مختلفة . فهؤلاء هم الخوارج في الاسلام . واما من بقي مع علي فهم شيعته .

كيف ثار الخوارج ولم ثاروا ؟ — كان نزاع بين المضرية واليمانية وخلاف بين اهل العراق واهل الشام . وكانت نفوس موغرة الصدر من قريش وقد زادت عدداً وايغاراً بعد عثمان . ولما ولى علي الخلافة فت في عضدها خروج طلحة والزبير وعائشة ومعاوية عليه . واذا نظرنا الى اهل العراق الذين هم نصراء علي رأينا فيهم صفات لاتدعوا الى الثقة بهم . فقد كان في البصرة رجال قاتلوا علياً في صفوف عائشة . وبالكوفة رجال لا يزال

يعاقب على الشك ويقتل على البادرة الصغير فدان العراقيون رهبة وخوفاً لسلطان بني امية ، ولما استوثق الحجاج من العراق سار نحو مكة فاتحاً ونصب عليها المنجنيق واطلق ناره على استار الكعبة فحرقها ولما افتتحها عنوة قتل عبدالله ابن الزبير واحتز رأسه ، والكعبة حرم لا يجوز القتال فيه مما لم يحدث مثله في الاسلام ، ذلك ان سلطان بني امية لم يكن يقوم في ذلك العهد الا على الشدة والقسوة ، فقد ثارت العرب عليهم من كل جانب وليس يدفع مثل هذا التيار الجارف الا السيف والنار .

سياسة بنى امية

وقد كان الحجاج أشد عمال بني امية وطأة ، واكثرهم بطشاً ، وقد

الحقد يغلي في صدورهم على عثمان وقد قتلوه حنقاً على قريش واستبداد ولاتها ، ثم ذلك النفور بين البصرة والكوفة ، ثم هؤلاء الاعراب الجافي الطباع الذين ملؤوا اصقاع العراق ، ثم قرب العراق للفرس وسابق حكمهم له مما جعله اول اقليم تعمل فيه دسائسهم — كل هذه الامور تثبت الروح المعنوية والسياسية التي تربط العراقيين وتثبت ان الثورة كانت واقعة حتماً . اما وقد ثار الخوارج فثورتهم راجعة الى ما اشربوه من شك وما اعتادوه من تردد وما حبب اليهم من نزاع . ثاروا ولكن لمن ثورتهم ؟ ألعلي وقد جفوه ؟ ام لمعاوية وهو عدوهم الاول ؟ جفوا كلا الفريقين وما الفريقان الا ولاة الامر من قريش فهم ثائرون على قريش وساخطون على الخلافة من اجل قريش لانها لم تحسن في اعتبارهم التصرف بها بل دب النزاع على الخلافة بين افرادها وتزاحموا التزاحم كله على تملكها ، اذاً كانت ثورة الخوارج على جهتين : قريش والخلافة . وكان لذلك نتيجتان : فمقتهم لقريش جعلهم ينادون بان الخلافة مصلحة عامة يليها اي امريء صالح لها ولو كان عبداً حبشياً . ومقتهم للخلافة جعلهم ينفرون منها النفور كله ويرون في وجودها ضرراً وشراً

اعانته شدة عبدالملك بن مروان على المبالغة في الشدة فانكر ذلك المسلمون ونقموا على الدولة و كثر الخارجون عليها ، واخذ غيرهم بالتآمر سراً لا جهراً ، ذلك كان حال دعاة العلويين ودعاة العباسيين ، ولما كانت سياسة بني امية عربية فقد نقم عليها الموالي وكان الخلفاء يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئاً من الغنائم ، والمولى رقيق اعتق ولما كانت الفتوحات العربية تحمل الى بلاط الخلفاء كثيراً من هؤلاء فقد كانوا يفرقونهم على بطانتهم وانسبائهم وهؤلاء يستخدمونهم في مصالحهم الصناعية والزراعية والدينيه والعلمية ، واشتغلوا هم بالرئاسة والسياسة ولذلك كان اكثر القراء والمغنين والكتاب والحجاب وعامة الناس من الموالي ، ولقد انجب الموالي وتوالدوا و كثر عددهم و كانوا ينفرون من بني امية لتعصبهم فاصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة او طلب الخلافة من العلويين والخوارج ، وكل من قام لمحاربة الامويين استعان عليهم بالموالي والعبيد وهم الفئة المظلومة ، واشهر من استخدمهم المختار بن عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هجرية ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية فقد اطمع موالي العراق بالغنيمة واركبهم على الدواب وكانوا ناقمين على اسيادهم لسؤ معاملتهم فجاؤوه متطوعين ، فكان عدد الموالي في جند المختار اضعاف عدد الاحرار وقد ابلوا في الحرب معه احسن البلاء نقمة منهم على اسيادهم ، ورغبة منهم في التحرر من العبودية ، وطمعاً بما قدمه لهم المختار من وعد ، وبما اطمعهم به من جزاء .

ولقد كان الاسلام يرفع منزلة المولي واما الامويون فذهبوا الى

تحقيره لانه غير عربي وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي. والخلاصة ان تعصب بني امية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوصاً الموالي فنقم هؤلاء عليهم وكانوا من اكبر المساعدين في اخراج الدولة من ايديهم .

كانت دولة بني امية دولة عربية اساس سياستها طلب السلطة والتغلب على مزاحميها فاستعان اصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب فجرتهم هذه العصبة الى انقسام العرب كما كانوا في الجاهلية فكان هناك حرب عوان بين القيسية والمضرية ، والقيسية انصار الامويين والمضرية انصار العلويين ، وبالغوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي واعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار من الاموال لانفاقها في اجتذاب الرجال ، والاستكثار منها بعثهم على الشدة في تحصيلها فكان ذلك من الاسباب التي عملت على تمزق سلطانهم .

اشهر خلفاء بني امية

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير حكم كل منهم نحواً من عشرين سنة وهم معاوية ابن ابي سفيان (٤١ — ٦٠ هـ) وعبد الملك مروان (٦٥ — ٨٦) وهشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥)

واما عمر بن عبد العزيز فقد كان اصدقهم ديناً واكثرهم صلاحاً ولولا هؤلاء الثلاثة لذهب ملك بني امية في اقل من مائة سنة . فقد تداول على كرسي الخلافة كثير من الضعفاء وارباب الترف وليست

تقوم الممالك بمثل هؤلاء بل هي لفي عوز الى رجال صلاب العود وافري العقل كثيري الدهاء

معاوية بن ابي سفيان

ولم يكن معاوية رجل سياسة ودهاء وحلم فحسب وانما كان فاتحاً ايضاً فما يجب ان يذكر له انه مع اشتغال ذهنه بالملك وتثبيت الملك لم يغفل قط عن انشاء اسطول عظيم غزا به الروم والقسطنطية غير مرة وافتتح ارواد وقبرص ورودس وغيرها من الجزائر وجعل محطات عسكرية لاسطوله وقسم من جنده

ولقد تعددت وقائعه مع الروم وكان في اكثرها ظافرا ومن اهم ما حدث في اواخر ايامه ان الروم ركبوا السفن للسنة السابعة من خلافته واتوا ساحل صور وصيدا — فاستولوا على جبل لبنان وانتشروا من جبل الجليل الى جبل الاسود وكان الناس يسمونهم الجراجمه ويسميهم بعضهم المردة ارسلهم قسطنطين ملك الروم ليشغلوا العرب عن الغزو ، وقد ظل هؤلاء في البلاد حتى اخرجهم منها عبد الملك بن مروان

وفي سنة ٤٩ هجرية سير معاوية جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف الى القسطنطية فاوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطية وتوفي في مدة الحصار ابو ايوب الانصاري الصحابي ودفن بالقرب من سورها

ولقد توفي معاوية سنة ٦٠ بعد ان وطأ اكناف الملك وابتكر في الدولة اشياء لم يسبقه احد اليها ، منها انه اول من وضع الحشم

للملوك ورفع الحراب والسيوف بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي بها الخليفة منفردا عن الناس في المسجد ، وهو اول من وضع البريد لوصول الاخبار بسرعة واخترع من امور الملك ديوان الخاتم ، واستخدم المسيحيين في مناصب الدولة فعهد بنظارة المالية الى منصور وسرجون من نصارى العرب السوريين

عبد الملك بن مروان

اما عبد الملك بن مروان فكان اشد بني امية حزما وبطشا استخلص العراق من شيعة علي وكان المختار بن عبيد قد ثار فيه مناديا بالخلافة لآل البيت ، ولما كان عبد الله بن الزبير ثائرا بمكة وقد بويع بالخلافة فقد منع عبد الملك اهل الشام من الحج وسبب ذلك ان ابن الزبير كان يأخذهم بالبيعة اذا حجوا ، ويقولون انه امر الناس بالحج الى بيت المقدس حيث الصخرة في المسجد الاقصى

ومن الاحداث في عهده تجهيز يوحنا امير جبل لبنان اثنى عشر الف فارس وذهابه الى البقاع ونزوله في قب الياس ، وغزوه الجبل الشرقي وشنه الغارات على الحجاج وساعده الروم فامدوه بالجند فاضطر عبد الملك الى تجديد الهدنه مع الروم ريثما يتفرغ لهم من مشاغله الداخلية وذلك على ان يدفع لملك الروم كل يوم الف دينار وفرساً ومملوكا ويقاسمه على خراج قبرص وارمنيه على شرط ان يخرج اللبنانيين من جبلهم فاجابه ملك الروم الى ذلك ولقب اللبنانيون بالمرده لانهم ابوا الخروج من الجبل وعصوا امر ملك الروم

بيد ان عبد الملك عاد فقاتل المردة واجبرهم على التفرق والسكنى في بلاد الشام ، ثم استعان بهم المسلمون في حروب كثيرة في ايام الامويين والعباسيين

وكان عبد الملك من الحزم وسعة الصدر وجمال العلم والادب على جانب عظيم وكان يعد من فقهاء المدينة وفي ايامه حولت الدواوين الى العربية وفي عهده نقشت الدنانير والدراهم بالعربية وهو اول من نهى الكلام بحضرة الخلفاء وكان الناس قبل ذلك يراجعونهم ويعارضونهم

وتولى الخلافة بعده اربعة من اولاده اولهم الوليد بن عبد الملك وكانت ايامه من ابرك ايام بني امية عمر الجوامع العظام وكتب الى الامصار بتوسيع المساجد والزيادة فيها وتسهيل الطرق وبث في الامة روح العمران

وقد بلغ بنو امية في زمنه اقصى درجات عزهم ففتحت البلاد وتغلغلت جيوشه في بلاد الترك والهند والروم ، وفتحت الاندلس وجاءه موسى بن نصير فاتحها الى دمشق يضع بين يديه الاموال والجواهر ، ويعرض امامه ابناء ملوك البربر والجزائر والاسبان والافرنج بتيجانهم وهم اسرى

وبعث الوليد اخاه مسلمة لغزو الروم فقتل منهم اربعين الفاً

هشام بن عبد الملك

تولى الخلافة هشام بن عبد الملك وهو عاشر بني امية وكان يحب

جمع المال وعمارة الارض واصطناع الرجال وتقوية الثغور واقامة البرك والتي في طريق مكة وخرج عليه غير واحد يطالبون بالخلافة لبني هاشم نقاتلهم وكان هشام من احزم بني امية غزا الروم مرات واسر قسطنطين ملكهم وحارب الترك وتوفي سنة ١٢٥

انهيار الدولة الاموية

للملك اعمار كما للافراد وملك بني اميه لم يطل اكثر من ١٢٠ سنة ودولة بني امية عربية صرفة كما قدمنا ، سارت مع المدنية اشواطاً مع اشتغالها بالفتح وقيام الخارجين عليها وقد فتحت على خلفائها الاقطار فنشروا الدين والاسلام واللغة فيها ، ووضعوا اسس النظام في الممالك التي دوخوها وعرفوا مايصلحها ، وكانت ادارتهم اشبه باللامركزية في عهدنا يبعثون بالعامل فيحل المسائل باجتهاده على رأي اهل الشرف والمكانة في القطر الذي يتولاه ولا يفاوض مقر الخلافة الا في اعوص الامور . وقد نصب علم الامويين الابيض في المشارق والمغارب ، نصب في بكين عاصمة الصين ، كما نصب في بواتيه جنوبي فرنسا . ولقد نبغ في ايامهم قواد عظام دوخوا الممالك بجيوش قليلة مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع الفهري ومسلمة بن عبدالملك وكثيرون غيرهم ونبغ في ايامهم شعراء عظام امثال الفرزدق وجرير والاخطل وبشار بن برد وعلماء اعلام في الادب والتاريخ وغير ذلك .

اسباب السقوط

ولقد سقطت دولتهم امام الدولة العباسية لاسباب تقدمنا بالكلام

عنها وسنتكلم عن سواها في الفصل الذي يليه ولما سئل احد شيوخهم عن اسباب زوال ملكهم قال :

« جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخربت بيوت اموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وامضوا اموراً دوننا اخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا . واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا ، وطلبنا اعداءنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا ، وكان استئثار الاخبار عنا من اوكد الاسباب لزوال ملكنا »

الفصل السابع والعشرون

العباسيون في بغداد

الدولة العباسية والخلافة العباسية ، انتثار ملك بني امية
سياسة الدولة العباسية ، اسباب السقوط
سوريا في عهد العباسيين

الدعوة العباسية والخلافة العباسية

كان بنو العباس ، وهم ابناء عم النبي من جملة المطالبين بالخلافة ، ولكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم مكتفين بالدعاية الى انفسهم سراً ، وكان العلويون والعباسيون في ايام ضيقهم

واضطهادهم يتقاربون لانهم من بني هاشم وكلا الرهطين اعداء بني امية من قبل الاسلام .

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم وهم يقيمون في الحميمة من اعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بني اميه فهموا بالنهوض ، واتفق في اثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية وهم دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه ابي هاشم وكان ابو هاشم هذا يفد على خلفاء بني امية من المدينه الى الشام فيمر اثناء الطريق بالحميمه ، في بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة وميلاً الى الرئاسه مع علمه بطمعه بالخلافة ، فاوجس منه شراً ويقولون انه دس اليه من سمه ، فشعر ابو هاشم بدنو اجله وهو في بعض الطريق فعرج الى الحميمة وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبدالله بن عباس فنزل عنده ولما احس بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن اهله فاوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده ، فلما مات ابو هاشم تهوس محمد بالخلافة وايقن بالنجاح لانه اكتسب حزب الكيسانية جميعا فاخذ في بث الدعوة سراً ثم توفي وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم وهو المعروف بالامام .

اخذ ابراهيم الامام في بث دعاته وبدأ بخراسان لوثوقه من اهلها اكثر من كل الامصار ولان اكثر اتباع الشيعة الكيسانية في خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مراراً فانفذ اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابي هاشم واوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم آل محمد ولم يعين احداً من العباسيين او العلويين ؛ وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة

الاموية فهان عليهم ان يعضدوا الدعوة الجديدة علهم يجدون فيها خيراً ، وتوفق ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد المشهور فاتم امرهم وسلم لهم الخلافة والملك .

انتشار الملك

وكان ملك الامويين مضطرباً في ايام آخر خلفائه مروان بن محمد وكانت اعراض الانحلال تظهر بسرعة فيزداد اعداء الامويين قوة وجرأة ولما بويع بالخلافة لابي العباس بالكوفة كانت جيوش العباسيين تطارد الامويين مطاردة وينتثر سلك الملك سلسلة بعد سلسلة بصورة سريعة ولم يكد العراق يدخل في طاعة العباسيين حتى ارسل ابو العباس عمه عبد الله بن علي الى الشام فافتتح دمشق سنة ١٢٣ واباحها لجنده ثلاث ساعات وقيل انهبها ثلاثة ايام ووضع السيف في اهلها ونبشت قبور بعض الامويين ولم يبقوا على غير قبر عمر بن عبد العزيز اعترافاً بفضله وتقواه ، ونقضوا سور دمشق حجراً حجراً .

اللبنانيون وثوراتهم

وفي سنة ١٣٥ نزع اللبنانيون الطاعة وهبطوا البقاع فنهبوه فهاجتهم العساكر العباسية من دمشق وقتلت زعيمهم الياس

ولقد ظلت الشام في اوائل ملك العباسيين في ثورات وفتن عظيمة بين القبائل القيسية والقبائل اليمنية وكان يحدث كثيراً ان يقوم احد الامويين مطالباً بالخلافة ثائراً على العباسيين فيمالئه اهل الشام ويحاربون معه ، والظاهر ان اهل الشام بعد سقوط الامويين ندموا على تلكئهم عن المساعدة والذود عن الدولة ، فاحبوا ان يردوا ما وقع ، فكان ما كان من كثرة الاضطرابات .

سياسة الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية بالفرس وغيرهم من الرعايا وفيهم الموالي واهل الذمة ولما قبض العباسيون على ازمة الملك جعلوا عاصمة ملكهم بين شيعتهم في العراق فاقاموا اولاً بالكوفة ثم في الهاشمية حتى بني المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة وقربوا الموالي الفرس خصوصاً اهل خراسان فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ولا سيما الذين حاربوا مع ابي مسلم في طلب الخلافة لهم ، واشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة وكان عاقلاً حازماً فلم يجعل للعباسيين محلاً للشك في صداقته فقربوه واول من استوزره ابو العباس السفاح اول الخلفاء العباسيين ثم تولاه المنصور وتوالت الوزارة في اعقابه الى يحيي ابنه فجعفر ابن ابنه وهو الذي نكب البرامكة على عهده

ولكن العرب لم يكونوا ليقبلوا بذلك ولا كان هذا مما يرضيهم وكانوا يستغربون اذا جاءوا مجلس الخليفة ان يروا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفه كانهم من اهله والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لاحدهم الا بمشقة وبعد انتظار طويل

وكان المهدي ابن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للمداولة واول من يتكلم منهم الموالي فاصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس واشتهر منهم بيوتات بالوزارة والولايه كآل برمك وآل وهب وآل سهل وال طاهر وغيرهم فكان رجالات العرب من بطانة الخليفة يكيدون لمناظريهم من رجال فارس

حتى تم لهم الامر في عهد الرشيد وبطش يومئذ بالبرامكة فاهلك رجالهم وحجز اموالهم وكان ذلك من الاسباب التي حملت الفرس على النقمة على العباسيين ودولتهم وعلى الانتصار للمامون ضد اخيه الامين لان والدة المأمون فارسية ووالدة الامين عربية

واخذ الخلفاء بعد الرشيد والمأمون بالاستكثار من الموالي الترك وكانت بلاد الترك في ذلك الحين يعبرون عنها بما وراء النهر فلما فتح المسلمون بخارا وسمرقند وفرغانه واستروسنه وغيرها من تركستان في ايام بني امية وجاءت الدولة العباسية وجدتهم يؤدون الجزية والخراج وكانوا يحملون في جملة الجزية اولاداً من اهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق وهم في الغالب من السبي او الاسرى وكان هؤلاء يتفرقون في بلاط الخلفاء ومنازل الامراء ويدينون بالاسلام وكانوا يمتازون بقوة الجسم والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار واول من استخدم الاتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا في عهده شرذمة صغيرة وانما كان الشأن الاكبر لجند العرب وجند خراسان فلما تولى المعتصم الخلافة وكانت امه تركية رأى ان يتقوى الاتراك فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم بالعراق ويبعث في طلبهم من تركستان حتى اجتمع عنده منهم عدة الاف فالبسهم لباساً خاصاً وميزهم عن سائر الجنود واستجلب المعتصم بعض امرائهم ورجالاتهم من بلادهم وحسن لهم الاقامة عنده وبنى لهم مدينة خاصة (سامرا) اقطعهم فيها الارض وجعلها عاصمة الدولة العباسية

ولقد اشتد ساعد الاتراك بعده وغلبوا على امور الدولة واخـذوا يعملون على ابتزاز الاموال وكانت الدولة قـد تجاوزت طور الشباب واخذت بالتقهقر وانغمس الخلفاء بالترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة فاصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة الا بالجند التركي وهؤلاء لا يعملون عملاً الا بالمال فمن استطاع استخدام الجند ملك وليس هناك عصبية ولا جنسية ولا جامعة دينيه ولا وطنية . واصبح البطش والفتك محور هذه الحركة اما استبدادهم في بـلاط الخلفاء فابتدأ في ايام المتوكل لانه لما تولى الخـلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان يكره الشيعة وهم جند خراسان اغرق في تقـديم الاتراك ورعايتهم ، ثم اغراهم ابنه المنتصر (او هم اغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك اول جرأتهم على الخلفاء . ولم تطل مدة المنتصر بعده الا اشهراً ثم هلك ، فقام بالامر بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالا عظيما في هذه الفترة فقتلوا المعتز شر قتلة وسملوا عيني المستكفي وحبسوه حتى توفي في حبسه

اسباب السقوط

ذلك كان شأنهم حتى انهيار الدولة العباسية وسقوط بغداد ، ونحـن نعتقد ان دخول الترك في الدولة كان من اعظم الاسباب التى ذهبت بالدولة العباسية فقد اصبحت الخلافة بواسطتهم اسمية دينية فقط لاتتعدى قرى بغداد الا قليلا ، وغـدا الحكم الفصل لمن قويت شكيمته من الدخلاء ، وبعد ان كانت بغداد ترسل الى الشام اولاد خلفائها واعاظم قوادها اصبحت ترسل اليها افريدون التركي وخاقان التركي ومحمد المولد من الموالي وظهر الفرق في الحكم لان الحكم كان فردياً لا شوري فاذا لم يكن

الحاكم او العامل غاية في الشرف والعلم والادب فهناك الفوضى والاستبداد وظلم الرعية

ولقد افضي هذا التساهل مع الاعاجم والاعتماد عليهم الى جر البلاء على الخلائف من بني العباس والى تفرق الدول الاسلامية ، وبعد ان كان العرب اصحاب الدولة اصبحت الابواب تفتح لكل دخيل عليهم ولم يعد حكم لقيس ولا لمضر ويمن بل للاعاجم من الفرس والترك والديلم فتبدلت روح الدولة وبعد ان كانت عربية خالصة ، اصبحت خليطاً من الاجلاف .

سوريا في عهد العباسيين

ولقد مضت مئة واثنتان وعشرون سنة على سوريا بعد انقراض دولة بني امية وهي لاتخلو من الفتن والحزازات ، تسمع فيها اسم غير واحد من الثائرين من ارباب العصبيات العربية ، فتن يثور بركانها ثم يهمد الى حين ، ونزاع على الملك والسلطان ، ولم تعامل البلاد بالحسنى الا في عهدي الرشيد والمأمون ، فقد كانا يوليان على سوريا اقدر رجالهما والسوريون يرضيهم من الخلفاء حسن سياستهم والنظر بعطف على مصالحهم .

بيد ان هذه السياسة لم تطل زمناً طويلا ، فقد تسلل الوهن والانحلال الى الدولة العباسية واخذ عمالها في الاطراف ينتقضون ويستقلون كل في مقاطعته ، وليس تاريخ سوريا بعد هذا العهد الا تاريخ دول صغيرة وممالك ضعيفة تنهض حينا ثم يخمد نورها بعده

انهيار الدولة العباسية وامارة بني طولون

وبينما كانت دولة الامويين في الاندلس في ابان عزها في القرن الثالث للهجرة كانت دولة العباسيين تضطرب وتنحل ، خصوصا في النصف الثاني من المئة الثالثة ، وعمال فارس ومصر والشام وغيرها يقطعون الخراج عن دار الملك ، ويستبدون بالامر ، وليس للخليفة العباسي الا الخطبة والسكة ، وكان اهم هؤلاء النازعين احمد بن طولون في مصر والشام وهو اول متملك ظفر حقيقة بملك الشام فما وسع العباسيين الا مصانعته بعد ان حاولوا محاربته فعجزوا ، وكان احمد هذا يتولى مصر في اول الامر باسم احد قواد الترك (سنة ٢٥٤) وكان الخليفة العباسي قد اقطعها له ، ثم لما استوثق من نفسه القوة هبط على سوريا فاستخلصها لنفسه وضمها الى مصر ، وكان ابن طولون عادلاً حسن

السياسة عالي الهمة بعيد النظر ، يحب العمارة كثير الصدقات ، وقد تزوج الخليفة المعتضد ابنة ابنه واسمها قطر الندى وكانت من اجمل نساء عصرها وكان جهازها عظيما جداً يقال ان مقداره الف هاون ذهباً

وخلف ابن طولون ابنه على ملك الشام ومصر واسمه خمارويه وكان جيشه يعد ثلاثمائة الفاً ، وكان بينه وبين الخليفة حرب انتصر خمارويه في اخرها ، وفي ايامه استقامت شؤون الدولة المصرية وصلحت احوال الناس .

وبعد وفاته قام ابنه بالامر من بعده فلم يحسن السيرة فقتله الجيش ، واغتنم الفرصة الان الخليفة العباسي المكتفي فبعث احد قواده الى دمشق فاستولى عليها من عمال آل طولون ثم سار الى مصر وذبح من آل طولون عشرين انسانا ، واشخص من بقي الى بغداد وبذلك انقرضت الدولة الطولونية في مصر وسوريا وقد دامت من سنة (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) .

وفي ايام الخليفة المكتفي ظهر القرامطه وهم من الخوارج فقطعوا السبل وسطوا على المسافرين وتمكن الخليفة من القضاء عليهم بعد جهاد عنيف

الفصل الثامن والعشرون

الفاطميون ، والسلجوقيون والحروب الصليبية

تغلبت على سوريا ثلاث دول في مدد متقاربة ، وهي الاخشيديه ، والحمدانية والفاطمية ، اشتقت الدولتان الاوليتان من الدولة العباسية ، بمعنى ان الاخشيديين والحمدانيين كانوا كالطولونيين من عمال العباسيين قوي امرهم فاستبدوا بسوريا وانشأوا لهم ملكا قصيراً ، ولكن دولة الفاطميين على خلاف ذلك فهي دولة علوية شيعية قامت سنة ٢٩٦ بالمغرب واول من ولي منهم ابو محمد عبيد الله بن محمد بن عبدالله بن

ميمون بن محمد بن اسمعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم .

دعا الدعاة اولاً بالمغرب الى محمد والد المهدي عبيدالله وكان بسلمية من اعمال سوريا ولما توفي اوصى الى ابنه عبيدالله المهدي واطلعه على اسرار الدعوة واسماء الدعاة ، وشاع ذلك ايام المكتفي العباسي فطلبه فهرب عبيدالله وابنه ابو القاسم محمد الذي ولي بعد المهدي وتلقب بالقائم وتوجه نحو المغرب ، ونزل بلدة تاهرت ، وعظم شأنه بين القبائل واستجابت دعوته وملك ومن بعده معظم شمالي افريقيه وجزائر البحر المتوسط مثل صقليه وساردينيه ومالطه وغيرها ، والخليفة المعز الذي فتح مصر والشام هو رابع خلفائهم

ولما هلك كافور اخر الاخشيديين في مصر نزل الفاطميون مصر وكانت متفرقة الاهواء ، افتتحها القائد جوهر على رأس مائة الف جندي ، ونادى بالخلافة للمعز الفاطمي ثم ارسل جوهر احد قواده فاستولى على فلسطين وجبى اموالها ، ثم افتتح الشام واقام الخطبة للمعز فيها سنة ٣٥٩ ﻫ ، واصبح الفاطميون خلفاء مصر وسوريا والمغرب

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فالفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر من سكان افريقيا فكان النفوذ مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك السلجوقيين وكانت البلاد في معظم عهد الفاطميين كرة تتقاذفها القوات المختلفة فقد قامت عليها كل هذه القوى تطلب زوالها لانها لم تحسن السياسة . فالعباسيون ، والحمدانيون ودولة بني مرداس ودولة بني الجراح ودولة بني سنان الى غيرها من الدول وكلهم امراء عرب البادية اخضعوا المدن لسلطانهم ، وكان قيامهم بدأ لهذه النهضة العربية دليلاً على ضعف الدولة الفاطمية وسوء ادارتها في سوريا

ولقد كانت معظم ايام الفاطميين فتوحاً وفتناً ولم يخفق علمهم على الساحل الا لينتقض الداخل ولا على الداخل الا ليثور الساحل ، واذا اطاع الجنوب اهتز الشمال ، فكان الشقاء في ايامهم اكثر من السعادة ، وكانت الاهواء مشتتة والاراء ممزقة ، ولئن كان اول خلفائهم ممن ملك الشام كالمعز والعزيز يحبان العدل والانصاف ولهما من الحزم قسط

وافر الا ان الولاة الذين تولوا الشام على عهدهما كانوا في الاكثر ظلاماً يسفكون الدماء ويستحلون اموال الرعية ، فخرب القطر في ايامهما ، وضعف اهله وغلت الاسعار ولا سيما على عهد العزيز ، اما في عهد الحاكم فان البلاد كانت الى الخلل المطلق لخلل في عقله وخرق في سياسته ، وكانت بعده تختلف باختلاف العامل الذى ترسله مصر ، وبينا القطر متقلقل في ادارته وسياسته اقبلت من الشرق قوة عظيمة لا قبل له بدفعها وهي قوة الترك السلجوقيين

السلجوقيين

والسلجوقيون نسبة لسلجوق من امراء الترك في جهة بخارى ، وهم اول الترك الذين دانوا بالاسلام ، ولما سار السلطان الب ارسلان ثاني ملوك السلجوقيين بجيوشه الى الشام كانت مملكته تمتد الى الصين شرقاً ومن اقصى اليمن غرباً ، افتتح حلب سنة (٤٦٣) ثم سار الى فلسطين فافتتحها وفتح بيت المقدس وحصر دمشق حصاراً شديداً ، ولما ملك السلطان ملكشاه ابنه شدد الحصار على دمشق بواسطة قواده حتى افتتحوها ، وكان السلجوقيون يخطبون في البلاد باسم العباسيين وكانوا على مذهب السنة وهو ما حبب السوريين في ملكهم

بيد ان الفاطميين عادوا فحاصروا دمشق مرة ثانية واستولوا على اعمالها واعمال فلسطين ، ولكن ذلك لم يدم طويلا فاضطروا الى الاكتفاء بمصر ، ولم تكن سوريا الان بحالة امن وسلام بل بالعكس كانت الثورات والفتن والحروب فيها قائمة قاعدة وقد اخذ يحكم المدن السورية مماليك من طرف ملكشاه التركي ، وانقسم السلجوقيون فيما بينهم وجنت سوريا ثمرة هذا الانقسام

الحروب الصليبية

ولم يتمتع ملوك التركمان بافتتاحهم سوريا زمناً طويلا ، فقد هبط الصليبيون بعدها بسنين قليلة ، وكانت البلاد خلال ذلك في هرج ومرج يتطاحن امراؤها فيمزق بعضهم بعضاً ، والقطر نهب ايدى ملكشاه خليفة الب ارسلان واخيه تتش ثم اولاده ،

والسلاجقة، يؤثرون العباسيين ويخطبون باسمهم والفاطميين قد اكتفوا من سوريا بساحلها

وربما كان في استيلاء السلاجقة على سوريا بعض الحكمة فلولاهم لكانت البلاد تمزقها الاحزاب والدول الصغيرة ، فقيام دولة فتية بجيش جرار اشتهر بالشجاعة يقف امام الفرنج كان فوق استطاعة العراق وسوريا والجزيرة تجنيد مثله .

ولقد اثخن بنو سلجوق في آسيا الصغرى في جيش صاحب القسطنطية بايعاز السلطان ملكشاه وضايق الامير برسق الروم حتى قرر على القسطنطية في كل سنة حمل ثلاثمائة الف دينار للسلطان وثلاثين الف دينار له ، جزية يؤديها ، وخاف ملك الروم على مملكته من المسلمين فكتب يستنهض ملوك اوروبا لمساعدته ، وعرض على البابا خضوعه ان عملت اوروبا على رد الخطر الذي يداهمه . ولقد كان التعصب الديني شديداً في الغرب لهذا العهد ، فاوعز البابا لبعض اخصائه ان يبثوا فكرة الحرب الصليبية وتخليص القبر المقدس من ايدي المسلمين في نفوس الشعب ، وتقبل الشعب هذه الدعوة بشجع وطمع ، فكان ذلك بدء النزاع الهائل بين الاسلامية والمسيحية او بين الشرق والغرب

ونزل الآن بنو حمدان [١] في حلب وهم خلفاء سيف الدولة تحت حكم الدولة الفاطمية لانها كانت تدين بدينهم ، ولكن الفاطميين لم يروا نصيراً قوياً في سوريا لان السواد الاعظم من اهل السنة والشيعة كانوا يخالفونهم في مذهبهم ، فكثر الخارجين على هذه الدولة وكان العباسيون يحركون اهل البلاد سراً على الثورة وكانت الحروب سجالاً فيوماً يضطر الفاطميون للتقهقر وآخر يتقدمون منتصرين فاتحين .

ولقد كان الفاطميون ايام المعز والعزيز على جانب من القوة استكثروا من الجند فكان عدده يقرب من مئة وخمسين الفاً وغيره كثير من الروم والصقالبة والبربر وكان عندهم مال كثير ، فبمثل هذه الجيوش ، وهذه الاموال استقام الامر للفاطميين في مصر وسوريا والمغرب وحكموا الى الفرات ومكة والمدينة فلما ضعفوا اصبحت البلاد في فوضى واضطراب واصبح القول للعامة وخصوصاً في سوريا

---

(١) بنو حمدان دولة عربيه من بني تغلب استقلت بالموصل وحلب بين سنه ٣١٧ - ٣٩٤

وبعد ان كانت سوريا في القرن الاول ومنتصف القرن الثاني مصدر الحياة العربية ومنبعث القوة الحربية امست في القرون التالية العوبة اهواء الدخلاء وطعمة الطامعين من اهل البوادى ومن جرت عليهم احكام الرقيق من العبيد والبرابرة

نهضة عربية

بيد انه لا ينكر ان القرن (الثالث بعد الهجرة) كان عصر جدة عربية بعد الغفلة السياسية ايام العباسيين وايام تغلب الفرس ثم الترك على شؤون الدولة ، فقد كان العرب ناقمين غاضبين وقد ثارت حفيظتهم لتوسيد المناصب ذات الشأن لغيرهم فهبوا يطلبون حقهم ، وتمكنت بعض قبائلهم باسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة في ما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين واجنادهم الترك في القرن الثالث والرابع للهجرة ، فاستقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب ، من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ واشهر امرائهم سيف الدولة وشاعره المشهور ابو الطيب المتنبي

وظهر في العراق دولة عربية اخرى اسمها المزيرية ، وخلف بني حمدان في الموصل بني عقيل ، وفي حلب المرادية وهناك دول صغيرة غير هذه ظهرت عربية في حكامها ونظمها ونهضتها ووطنيتها .

الحضارة العربية[1]

اوغل العرب المسلمون في الشام والعراق والفرس ومصر فالفوها بلاداً ذات حضارة كاملة الاداة والمظهر . وجدوا فيها ثمرات الاجتماع من فلسفة وعلم وفن . وتلك شئون ليس لشبه الجزيرة بها عهد . ولكنهم الفوا الجانب المعنوي من هذه الحياة الحضرية ضعيفاً متهدماً نخره الترف وزعزعت اسسه المظالم . هذا الضعف في ايمان النفس هو الذي فتح امام النفوس العربية التى ازدادت بايمانها الجديد قوة وحماسة اسوار هذه الامم . فبدأ العرب اول فتحهم هذه البلاد ينشرون الدين فيها ويقيمون العدل بين اهلها ويعفون

(١) من فصل للدكتور هيكل

عما استقر من الحضارة بين ربوعها . ولكن فترة الغزو الاولى لم تلبث ان تمر ولم يلبث العرب ان اطمأنوا الى معاني النعمة التي افاضتها عليهم خيرات البلاد المفتوحة حتى بدأوا يترددون في وجوب التعفف عنها . ولعل اول مظاهر هذا التردد صراحة انتقال حكومة الدولة من مكة والمدينة الى دمشق . فليس شك في ان من الاسباب التي ادت الى هذا الانتقال ما رأى العرب من فقر شبه الجزيرة واقفارها . ومن استحالة قيام الحضارة فيها . وبانتقال الحكومة الى دمشق واخذ الخليفة من مظاهر الترف بنصيب بدأ هؤلاء الذين قضوا حياتهم الى ذلك الحين في شظف من العيش ينالون من آثار النعمة ما يرفه عنهم مضض الجهاد وما يزيدهم للغزو حباً وفيه امعاناً

ولقد استطاع العربي ان يتمثل حضارة البلاد التي مر بها . بل استطاع اكثر من ذلك ان يهضم الحضارات المختلفة وان يسيغها وان يجعل منها حضارة واحدة هي الحضارة الاسلامية

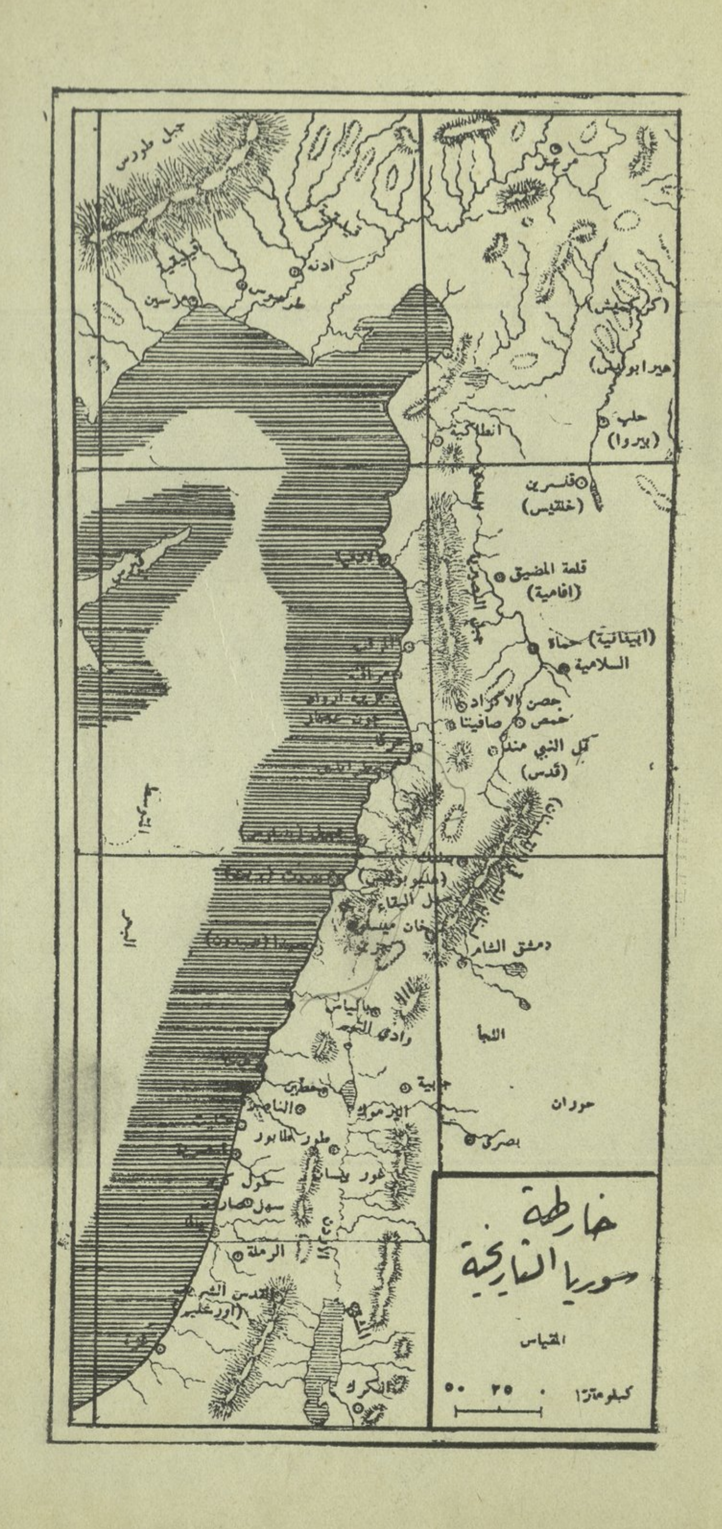
فكانت حضارة بغداد وحضارة قرطبة غاية ما وصل اليه التقدم الانساني في تلك العصور . ولما تدهورت دولة العرب وقام الترك على حكم المسلمين وقفت هذه الحضارة التي ساغها العقل العربي فلم تتقدم وظلت واقفة الى زمن قريب من عصرنا الحاضر ثم هبت عليها نسمات من الحياة تبعث في النفوس اليوم اكبر الامل ان يعود لهذه الحضارة مجدها وسلطانها

بيروت واخبارها في عهد الامويين والعباسيين

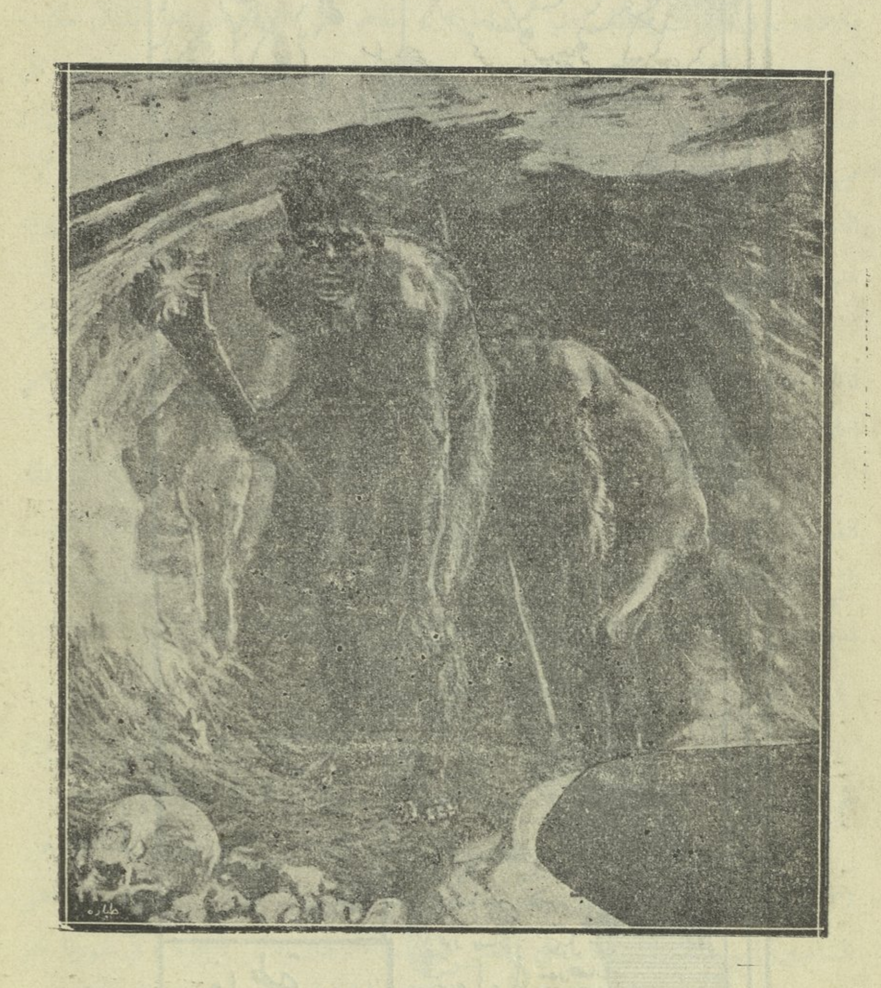
كانت بيروت في عهد الامويين تابعة لدمشق ، وكان اكثر اهلها من الروم المسيحيين ، ثم صار المسلمون يتكاثرون فيها ، والروم يقلون حتى صار اكثر اهلها مسلمين .

اما في عهد العباسيين فاشتهر في بيروت الامام الاوزاعي الذي توفي سنة ١٦٧ هـ . (٧٧٣ م) في آخر خلافة ابي جعفر المنصور وهو ابن سبعين سنه . وهو امام اهل الشام وعالمهم ، قيل انه اجاب في سبعين الف مسألة وصار يعمل بمذهبه ، في سوريا نحو مائتي سنة ، وكان عظيم الشأن في سوريا ، وقبره لا يزال خارج بيروت مقصداً للزائرين

انشأنا هذه الفصول عن الدولة العربية تكملة لما قدمناه في هذا الكتاب ونحن ندرس تاريخ سوريا ولبنان عنها ' زيادة في الفائدة ' واشباعاً للبحث ' مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامي في الكتب الكبيرة



خارطة
سوريا التاريخية
المقياس
كيلومترات ٠ ٢٥ ٥٠
جبل طوروس
ادنه
طرسوس
انطاكية
هيرابوليس
حلب
(بيروا)
قنسرين
(خلقيس)
قلعة المضيق
(افامية)
(ابيفانية) حماة
السلامية
حصن الاكراد
حمص
صافيتا
تل النبي مندو
(قدس)
سهل البقاع
خان ميسلون
دمشق الشام
اللجا
حوران
بصرى
جابية
اليرموك
الناصرة
طور الطابور
الرملة
الكرك



الانسان الاول في المغاور

الانسان الاول

كان الانسان الاول عارياً لا يستر جسمه الا شعره الكثيف ، وقد لا يبعد ان يكون تعلم لبس الجلود منذ زمن بعيد ، بيد انه في اول الامر رمى بها قريباً من المكان الذي يعيش فيه وذلك بعد ان سلخ الجلد عن الحيوان وازدرد لحمه ، فلما قرصه القر وضعها عليه واستعملها كغطاء لاطفاله وصغاره

وكان الانسان الاول اكثر ما يعيش في المغاور وعلى ضفاف الانهر وفي الاشجار مخافة ان يفترسه الحيوان الكاسر على غرة ، وكان يوقد النار ليلاً ارهاباً للحيوانات ورغبة منه في الاستئناس مع اولاده وعائلته

ولقد كان الانسان الاول يصطاد الحيوانات التي تمر به ويراها في طريقه ويقتلها بقوس في يده ، ولم يكن يعرف كيف يطبخها فكان يأكل اللحم نيئاً طرياً ولم يكن هذا الانسان صياداً بالمعنى الصحيح وخصوصاً قبل ان عرف القوس ، فقد كان يهاب الوحش الكاسر فلا يتعرض له بخير ولا بشر ، وكان يعيش اكثر الاحيان على اثمار الاشجار وكان يأكل الحيوانات الميتة ، بل ويأكل بعضه بعضاً اذا اعوزه الغذاء وعضه الجوع . وذلك منذ آلاف كثيرة من السنين .

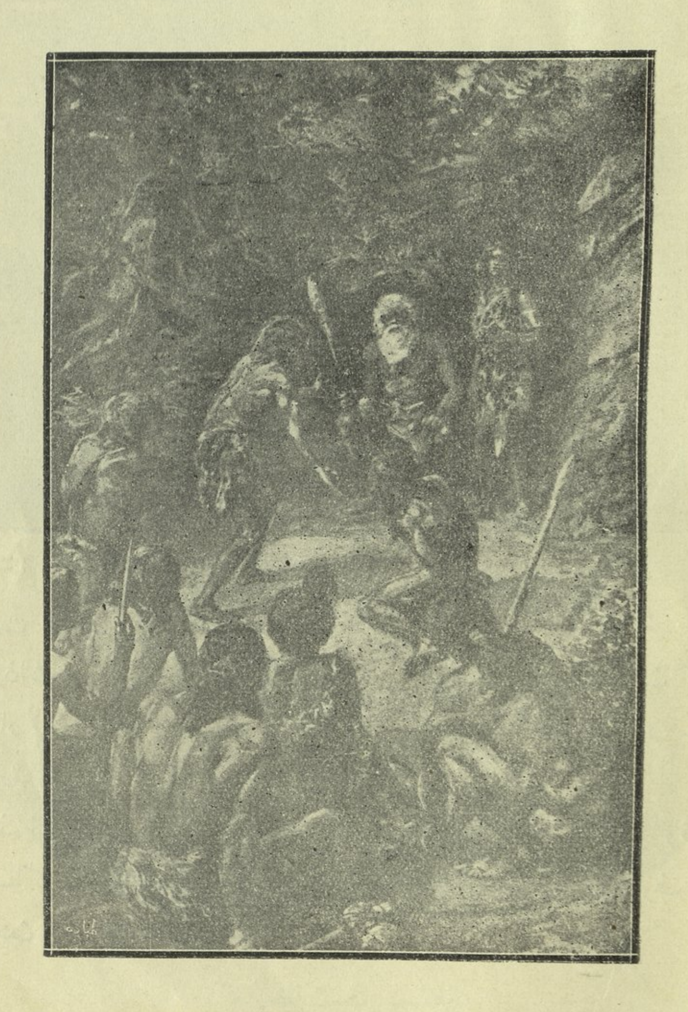
وهذه الصورة تمثل الانسان الاول خارجاً من احد المغاور التي يسكنها وهو يحمل هراوة في يده يرد بها عادية اعدائه عنه

المحكمة الاولى

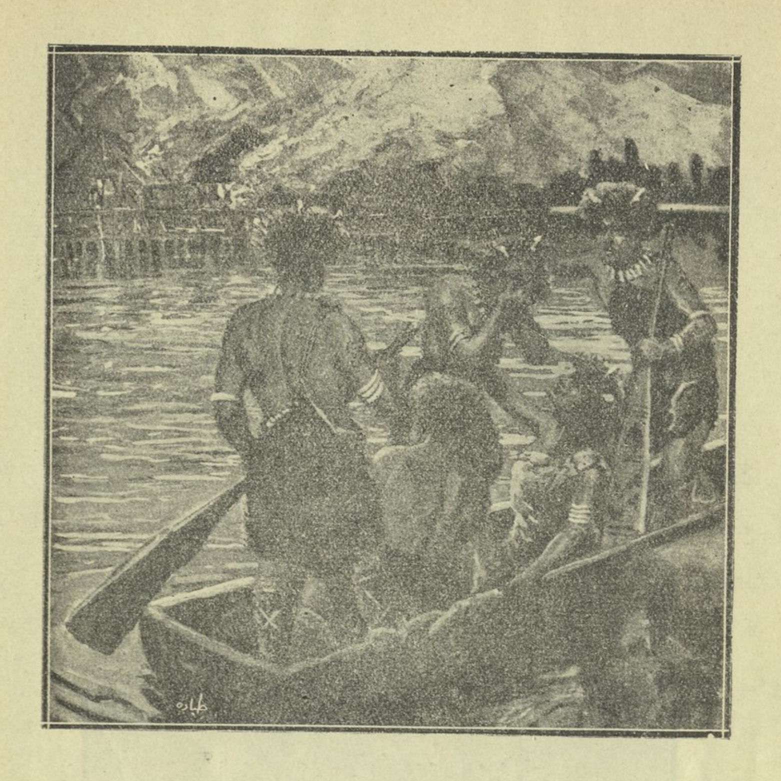
تصور الانسان الاول منذ ثلاثمائة الف سنة تقريباً ، تراه ابكماً لا يستطيع كلاماً ولا يفكر الا في اقرب الاشيـاء اليه ، ولا يفرق بين الجماد والحي ولكنه كان يعتقد بالحياة بعد الموت فيدفن امواته ومعهم الكثير من الآنية والطعام.

وكان هذا الانسان يخشى زعيم القبيلة وكبيرها ، ويربي اولاده وهم صغار على هذا الخوف ، فكان من المحظور عليهم ان يلمسوا الزعيم الكبير او ان يجلسوا مكانه ، كما هو الحال مع اطفالنا اليوم حين نحظر عليهم اللعب بغليون والدهم والجلوس على كرسيه .

وكان الرجل الكبير حتى بعد وفاته محترماً ، وكانوا يعتقدون انه وقد حارب في سبيل قبيلته ايام حياته لا يبعد ان يحارب في سبيلها بعد مماته ، ومن هنا نشأت فكرة تخويف القبائل الاخرى بكبير قبيلة ثانية ، وكلما كان الرجل الكبير في حياته قوياً شديدا وبطاشاً كلما كان صدى قوته بعد موته عظيما وكان الرجل الكبير في حياته زعيم القبيلة ومدبر امورها والحاكم في مخاصماتها ، وصورتنا هذه تمثل احد هؤلاء الزعماء يحكم بين افراد قبيلته في مايعرضون عليه من مشكل ونزاع .



زعيم القبيلة يقضي في قبيلته



رغبت جماعات من بني الانسان في سكنى الانهر وبناء مساكن خشبية لها في وسطها وذلك خوفاً من الحيوانات الكاسرة ومن بعضها بعضاً ، وكان يحدث كثيرا ان تلعب النار في بعض هذه (المستعمرات الخشبية) فتلتهمها وتذرها رمادا ، وتحمل اهلها على مغادرتها نافرين باكين .

وهذه الصورة تمثل فريقاً من سكان هذه (القرى النهرية) في سويسرا وقد لعبت النار في مساكنهم وهم يبتعدون عنها في زورق صغير وقد تملكهم الجزع والخوف . وتاريخ هذا الحادث منذ عشرة آلاف سنة



البرنسس نفرت المصرية

المرأة المصريه في العصور القديمة

لا تزال الآثار المصرية موضع اعجاب الشعوب في كل زمان ومكان ، ولا يزال علماء الارض يقصدون وادي النيل للحفر عن اثر قديم، ودرس ما في مصر من نصب قائم ، ومباني عظيمة . ولم تكن مصر امة حربية كاشور مثلاً بل امة عمل وصناعة وفن ، ولا تزال آثارها الخالدة على الاجيال قبلة العالم الحديث، وما هذه الآثار الباقية الا بقية يسيرة من رأس المال .

وان من اغرب مظاهر الحياة في مصر ان تتمتع المرأة المصرية بجميع حقوقها المادية والادبية حتى في التربع على دست الملك خلافاً لما كانت عليه المرأة الشرقية او اليونانية في العصور القديمة ، ولعل ذلك راجع لدماثة اخلاق المصريين ورقيهم علماً وعملاً .

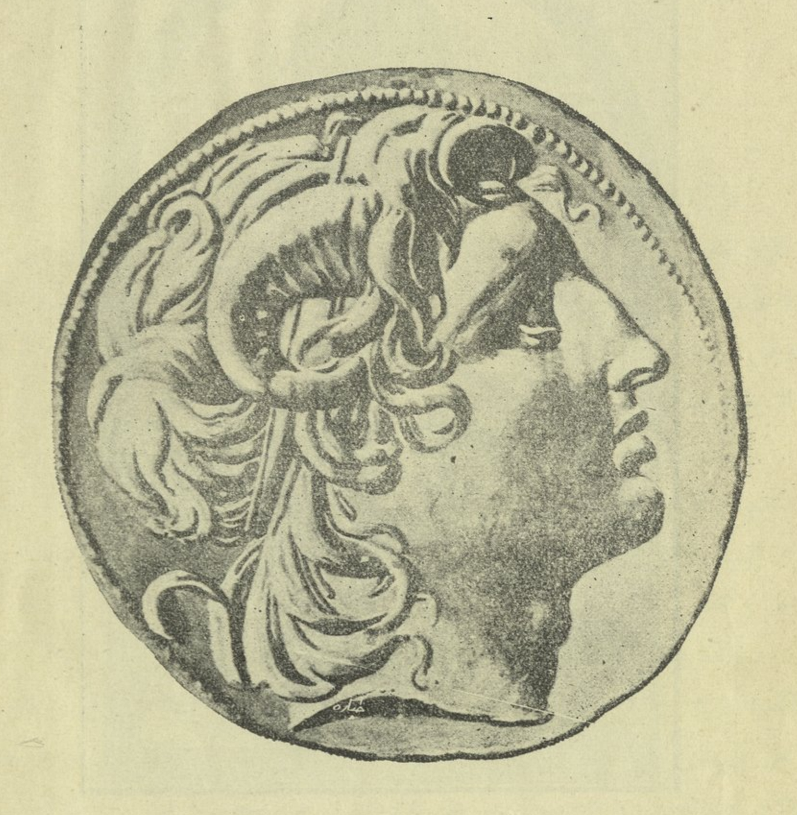
ولقد ضاع الكثير من آثار مصر ، واندثرت بذلك جميع العلوم والفنون المصرية القديمة وكاد يقضي على الباقي جهل العالم لغة مصر الهيروغليفية لولا ان قام في القرن الخامس من عمل على حل رموزها وهو شامبليون الافرنسي ، فتيسر لنا بذلك قراءة المنقوش على جدران الاهرام والمقابر وما هو مكتوب على الاوراق البردية المحفوظة في المتاحف العالمية .

وهذه الصورة تمثل البرنسس نفرت المصرية التي عاشت في مصر منذ ستة الاف سنة



الفينيقيون التجار

اعظم اعمال الفينيقيين ماصرفوا اليهِ عنايتهم من المتاجرة وحمل عادات الامم الشرقية الى الغربية وعادات هؤلاء الى الشرق ، ورسمنا الحاضر يمثلهم على شواطئ انكلترا يساومون اهلها ويعرضون عليهم ما حملوه من الشرق من بديع الصناعة ولطيف الحياكة وجميل المنسوجات



الاسكندر المقدوني

الاسكندر المقدوني

في اليوم الثاني عشر من شهر يونيو سنة ٣٢٣ قبل الميلاد اشتدت وطأة المرض على الاسكندر المقدوني في قصره في بابل وشاع الخبر في المدينة والجيش ، وما كاد يبلغ مسامع المقدونيين وهم رجاله وجنده حتى ساورهم القلق وتملكهم الجزع فازدحموا حول القصر طالبين بالحاح روئية الملك ظناً منهم انه قضى نحبه ، واخفت حاشيته الخبر عنهم ، ولما رأت الحاشية شدة توسلهم والحاحهم فتحت لهم ابواب القصر فولجوه الواحد تلو الآخر ، واخذوا يمرون امام الاسكندر الذي كان يرفع رأسه بعناء شديد ويشير بعينه اليهم اشارة الوداع ، وفي مساء اليوم التالي ١٣ يونيو مات هذا الملك العظيم ولما يبلغ من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة تماماً ، بعد ان ملك العالم القديم اثنتي عشرة سنة وثمانية اشهر .

القواد الافذاذ قلائل في العالم والاسكندر كان فرداً فذاً في التاريخ ، فتح العالم القديم بالقليل من السنين وقضى على دولة الفرس في ثلاث معارك ، ودان له العالم القديم المعروف في اقل من سنتين فامتدت مملكته من بلاد اليونان الى اقصى الحدود الروسية اليوم ومن اقصى الفرات حتى السند والهند

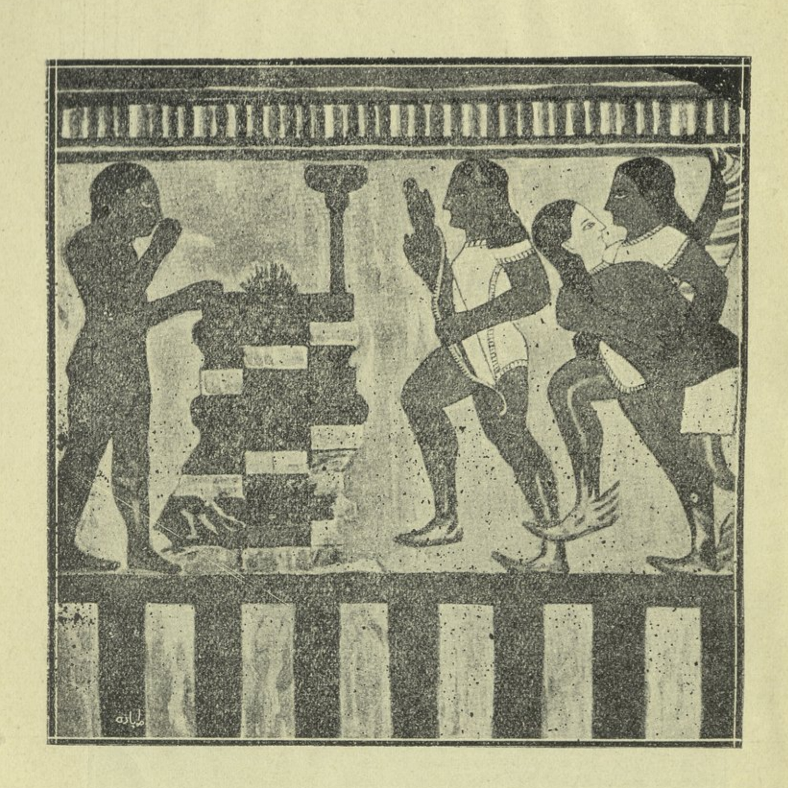
فاعجب لهذه المملكة العظيمة يفتتحها فتى يافع في الثلاثين من العمر

و كان الاسكندر طماحاً طماعاً ، فكر في توحيد العالم بنقل عادات الغرب الى الشرق، والشرق الى الغرب ، ورأى تنفيذاً لفكرته هذه ان ينقل جماعات من بني الشرق الى الغرب ومثلهم من الغرب الى الشرق ولو تم له ما اراده لكان للتاريخ القديم والمتوسط والحديث غير طوره الحاضر ، وحديثه المعروف



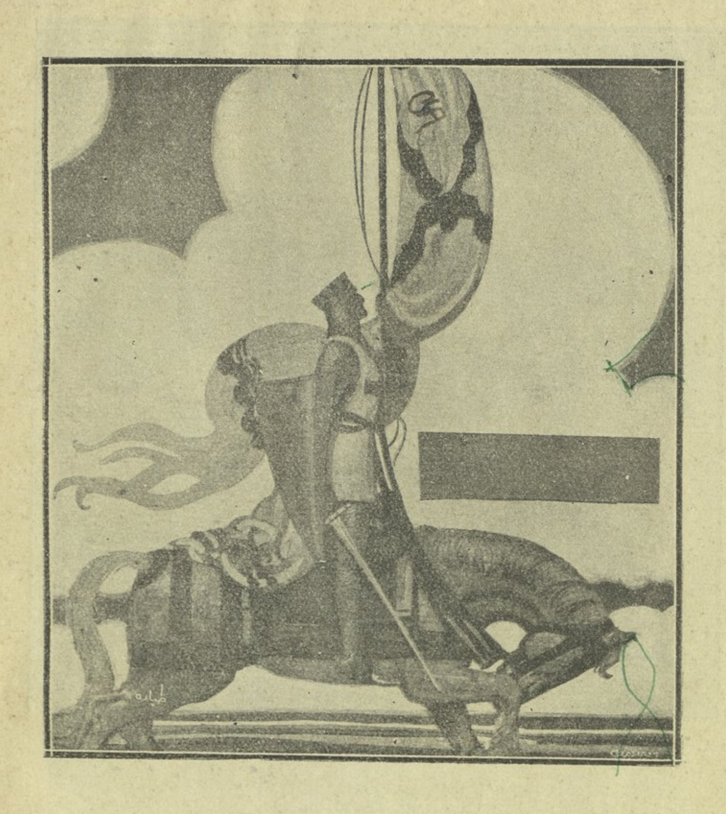
الجنود الفارسية منذ ثلاثة آلاف سنة

اشور اكبر دولة عسكرية ظهرت في الشرق القديم وسارت فارس علي آثارها فكانت جنودها تسير من اقصى الفرات الى اقصى النيل من فتح الى فتح ونصر الى نصر ، حتى حاولت استعباد اليونان فردوها خاسرة وهذا الرسم يمثل بعضاً من جنود فارس وهو انموذج للباس العسكري في ذلك العهد



ضحايا الآلهة في فينيقيا

ليس للمساحة شأن عظيم في التاريخ فقد يحدث كثيرا ان يقوم شعب صغير في ارض ضيقة فيلعب دورا عظيما في تاريخ العالم ، كذلك كان شأن الفينيقيين والقرطاجنيين وسكان اثينا وسبارطا في القرون الاولى وكذلك كان شأن جنوى وفلورنسا وفينس وبيزا في القرون الوسطى ولقد اتينا في الفصول التالية على شي. من تاريخ الفينيقيين فليس لنا مانزيد الآن انه كان يغلب عليهم في مناسك دينهم الفسق والفجور والشراسة ،وهذه الصورة تمثلهم وهم يقدمون اطفالهم ضحايا لالهتهم ، وذلك رغبة منهم في اجتناب غضبها واكتساباً لرضاها



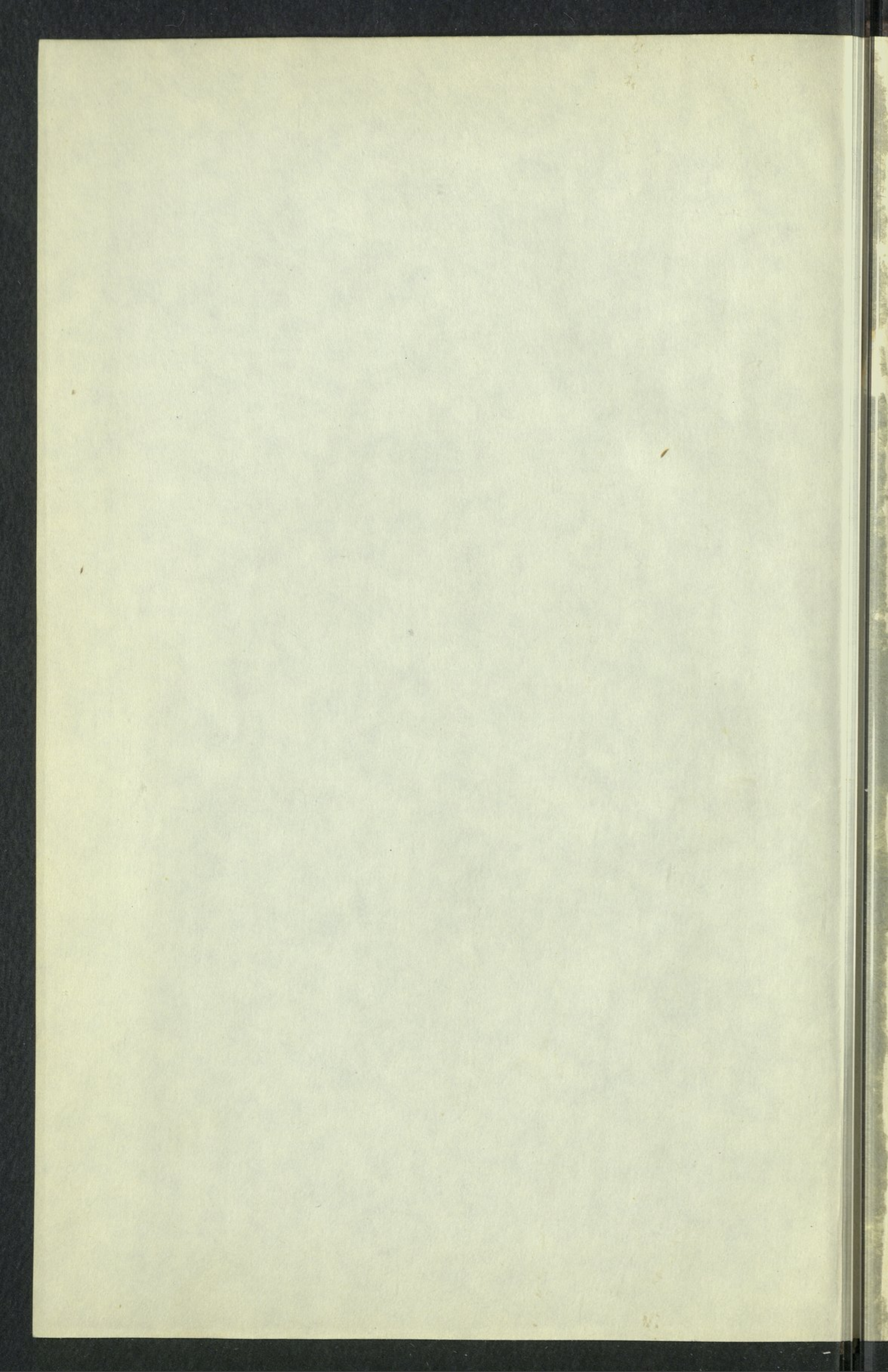
الفارس الصليبي

ليس اكبر من سلطان الدين في العصور المتوسطة ، فقد كانت كلمة الكنيسة لا ترد ، وحكم البابا امرًا مبرمًا ، غضب احد البابوات على امبراطور الالمان في العصور المتوسطة لامور انكرها عليه فحرمه ، فاضطر الامبراطور ان يأتي رومية حافياً عاري الرأس وان يقف على باب البابا ثلاثة ايام بلياليهن طالباً الصفح والمغفرة . فلاتعجب بعد ذلك ان ترى الناس ينفرون خفافاً وثقالا للشرق يبغون استخلاص قبر السيد المسيح من ايدي المسلمين لكلمة فاه بها رجل الكنيسة الاكبر ، ودعوة قام بها في عرض اوروبا احد الكهنة . وهذه صورة احد الفرسان الصليبيين في لباسه الحربي وعلمه الصليبي

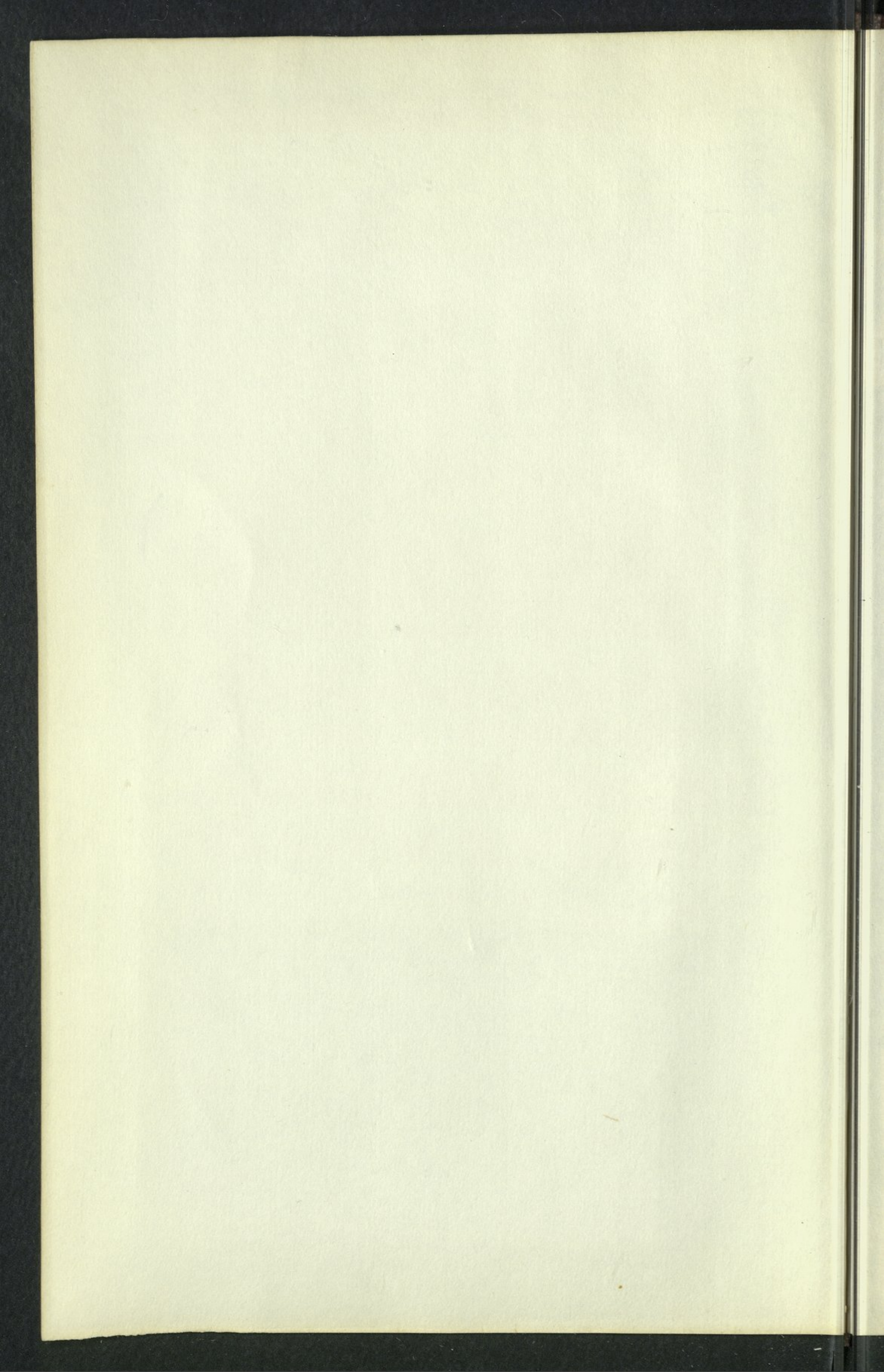
فهرس الكتاب

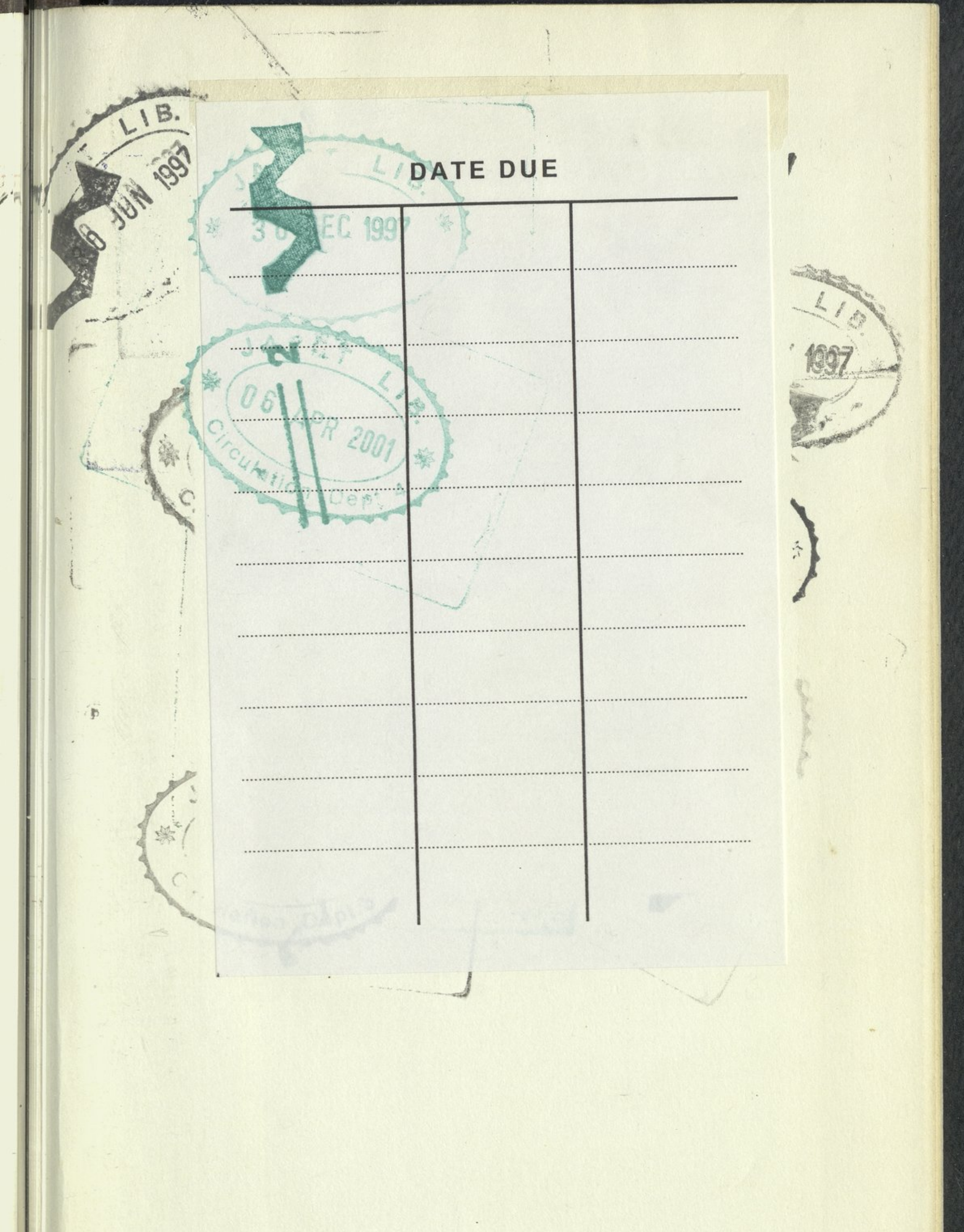
الصفحة

فصول في التاريخ العربي والاسلام



[illegible]




DATE DUE
LIB. 06 JUN 1997
30 DEC 1997
LIB. 06 APR 2001 Circulation Dept.
LIB. 1997

956.9:A162sA:c.1
ابو النصر ،عمر
سورية ولبنان حتى اول القرن التاسع ع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01056056
A.U.B. LIBRARY
956.9
A162sA

